المنطقة الجنوبية

تشكل عسير ونجران والباحة وجازان المنطقة الجنوبية من المملكة العربية السعودية، وتستأثر نجران بأكثر من نصف مساحة المنطقة الجنوبية مع وجود مساحات كبيرة منها تشغلها صحراء الربع الخالي والتكوينات الرملية، ثم عسير التي تغطي مساحتها نحو ثلث مساحة المنطقة، وجازان التي تغطي مساحتها ٦٪ من مساحة المنطقة الجنوبية، أما الباحة فهي أصغر أجزاء المنطقة الجنوبية إذ تشغل ٤٪ من المساحة الإجمالية للمنطقة.

ويمكن تقسيم المنطقة من الناحية الطبيعية إلى أربعة أقاليم على شكل شرائط طولية توازي في امتدادها البحر الأحمر، وهي: سهول تهامة، ومنطقة الأصدار، وجبال السروات التي هي جزء من جبال الحجاز، والهضبة الداخلية. وتختلف هذه الأقاليم الطبيعية من حيث المناخ والتضاريس ومواد البناء المتوافرة بالطبيعة، وهي لذلك تختلف في طرزها المعمارية. وتمتد سهول تهامة بمحاذاة ساحل البحر الأحمر وترتفع عن سطح البحر في بعض مناطقها إلى نحو ٥٠٠م، وتقل في مناطق أخرى حيث لا تزيد على مستوى سطح البحر، ويتفاوت اتساعها ما بين أقل من ٢٠كم و٥٠كم. ويتوقف اتساع سهول تهامة على قرب المرتفعات أو ابتعادها عن الساحل.

وتمتاز سهول تهامة بوجود تراكمات من بقايا الصخور المرجانية وبعض الترسبات ذات الأصل البركاني إلى جانب تكوينات حصباوية وحصوية في المناطق القريبة من المرتفعات. وهناك بعض الكثبان الرملية الثابتة التي تعرف بالقيزان (جمع قوز) وتأخذ شكلاً قبابياً، ويطلق عليها كذلك اسم خبت. وإلى الشرق من منطقة السهول الساحلية

(تهامة) تمتد منطقة السفوح الجبلية المنحدرة جهة الغرب، منحدر السروات، وتعرف محلياً بالأصدار ويتراوح اتساعها ما بين ٣٥-٧٥كم. وتمتاز منطقة الأصدار بأنها منطقة معقدة تضاريسياً حيث توجد الوديان العميقة والجبال العالية، وبسبب وعورة سطحها يقل بها العمران.

أما جبال السروات فتمتد إلى الشرق من منطقة الأصدار. ويتراوح ارتفاع الجبال في عسير ما بين ٢٠٠٠م وأكثر من ٣٠٠٠م. وتمتاز جبال السروات بانحدارها شبه العمودي جهة الغرب مما أدى إلى تكوين أودية عميقة تعرف بالعقبات. وإذا تركنا جبال السروات واتجهنا شرقاً دخلنا في منطقة هضبية تأثرت كثيراً بعوامل التعرية وتقطعها الأودية المختلفة، وتعرف هذه الهضبة في بعض أجزائها بهضبة الوديان، نتيجة لكثرة الوديان. وفي هذه الهضبة بعض الواحات الزراعية مثل واحة نجران وبيشة والعقيق ومعشوقة.

ويتنوع أيضاً مناخ المنطقة الجنوبية، ففي المناطق الساحلية (سهول تهامة) ترتفع درجة الحرارة وتزيد نسبة الرطوبة، وفي المناطق المرتفعة تكون درجة الحرارة معتدلة صيفاً وباردة شتاءً. وتمتاز المنطقة الجنوبية بأنها أكثر مناطق المملكة أمطاراً وتعرضاً لأخطار السيول، ويبلغ معدل المطر السنوي على عسير ١٦٩ ملم، وفي الباحة ٢٠٠ ملم وفي جازان ١٧٣ ملم. ويقل المطر كلما اتجهنا شرقاً حيث يصل معدل المطر على نجران إلى أقل من ١٠٠ ملم وإن كانت أجزاؤها الغربية أكثر مطراً من أجزائها الشرقية.

وجدير بالذكر أن السيول تحدث بالمنطقة الجنوبية في معظم شهور السنة، وبسبب كثرة السيول فإن المنطقة الجنوبية تمتاز بوجود المياه الجوفية إلى جانب بعض الينابيع الحارة الفوارة والتي تصل درجات حرارة مياهها عند السطح إلى نحو ٥٠ م، وتعرف في عسير نحو ٨ ينابيع مياه حارة. وبسبب وفرة المياه من الأمطار والأودية والآبار والعيون فإن النشاط الزراعي من أهم مقومات اقتصاد المنطقة الجنوبية، التي تزيد نسبة أراضيها الزراعية على ١٨٪ من إجمالي مساحات الأراضي الزراعية، في المملكة. ويعمل سكان المنطقة الجنوبية بالزراعة وتزرع معظم أراضيها بالحبوب، كما تربى الدواجن والماعز والأغنام والأبقار والإبل. وتتركز تربية البقر بصفة خاصة في جازان وتهامة عسير، وتمارس حرفة صيد الأسماك في سواحل المنطقة الجنوبية لا سيما في

جازان -التي تعد أيضاً مركـزاً تجارياً- وفي الليث والقنفذة.

ويختلف النمط العمراني للمستوطنات التقليدية من منطقة إلى أخرى حسب الموقع وخصائصه المناخيـة، ومدى توافر المياه، ونوعية مواد البناء المتوافرة. وعلى سبيل المثال يختلف نمط القرى الواقعة في تهامة عن تلك الواقعة في جبال السروات، ففي تهامة تبنى المنازل على شكل عشش من أغصان الأشـجار، بينما تـبنى في قرى المرتفعات والـهضبة من الطين والحجر. وفي تهامة تـكون المنازل متفرقة بـعضها عن بعض، بينما تكون في السراة والهضبة متلاصقة أو متقاربة وبينها أزقة ضيقة مظللة وبعضها مغطى.

إضافة إلـى المساكن الـدائمة هناك مساكن شبه دائمة في نجران، حيث يوجد البدو الذيـن يرعون الأغنام والماعز في وديان السـروات. وهناك البدو الرحـل المتجولون بإبلهم في أطراف صحراء الربع الخالي. وفي جازان قـبائل بدوية تربي قطعانها وترعاها قرب الكثبان الرملية وفي الخبوت (القيزان). وتشكل البداوة نسبة ضئيلة مـن سكان منطقة الباحة، وهـم الذين يسكنون بيوت الشعر، ويشتغلون بتربـية الأغنام، ويتخـذون من الناحية الشرقية للمنطقة مقراً لنشاطاتهم.

طرز العمران وطرق البناء

سيكون الحديث هنا عن العمارة في المنطقة الجنوبية بصورة عامة مع التركيز على العمارة السكنية ثم نتحدث عن أنواع المبانـي الأخرى في المنـطقة كالمـساجد والأسواق والحصون، وطرق الـبناء في المنطقة الجنوبية قبل أن نتحدث بالتفصيل عن العمارة في كل من المناطق الجغرافية الأربع التي سبقت الإشارة اليها.

تنفرد المنطقة الجنوبية بطابع معماري تقليدي متمـيز يختلف بشكل جوهري عن طرز العمارة الـتقليدية الشائعة فـي بقية أنحاء المملكة. ففي هذه المنطقة تبنى القرى والتجـمعات السكنية عـلى قمم الجبـال والتلال لـكي يمـكن استـغلال المساحات المنبسطة المتوافرة في الزراعة، سواء في بطون الأودية أو سفوح الجبال. ومن هنا نجد أن المساكن تتجمع بشـكل متلاصـق ومتلاحم في امـتداد رأسي، لاستـغلال المـساحة الأفـقية المحـدودة المتـوافرة للسـكن. والقريـة بمساحتـها المحدودة تشكل وحدة اجتماعية متماسكة ذات روابط قبليـة قوية جداً قل أن نجد لها نظيراً فـي بقية أجزاء المملكة. وقد نتج عن ذلـك وعن الظروف السياسيـة غير المستقـرة التي مرت بها المنطقة فـي الماضي أن أصبحت القرية وحدة دفاعية

متكاملة ذات مداخل صعبة، ومبان عالية صمـاء من الخـارج، وطرقات ضـيقة ومتعرجة، مـع وجود أبراج مراقبة في الأجزاء الاستـراتيجية مـنها. هذا إلـى جانب أن حدود القرية والحمى الخاص بها ومزارعها التابعة لها معروفة وتتعاقب عليها الأجيال وتخضع لعرف قبلي دقيق.

أما المنازل فتبنى من الصخور المحلية وتـبنـى الجدران بـرص الحجـارة ذات الأحجام المختلفة بشكل بديع ونمط متميز دون استخدام أي مادة من مواد المونة أو المعجون أو التلييس عدا حجارة صغيرة توضع بين الحجارة الكبيرة تسمى الصلب أو الدمك، ومن الخارج حجارة صغيرة تسـمى الكـحل أو اللـزّ، وذلك لسـد الفتحات بين الحجارة الكبيرة فتُجمل البناء وتقويه. ويمتاز التصميم الداخلي للمنازل في المنطقـة الجنوبية بتخصـيص الطابق الأرضي لإيواء الماشية ولتخزين الحبوب والأعلاف. ويعزل هذا الطابق في العادة عن الواجهة الرئيسية إذ يوضـع بابه في الواجهة الخلفية. أما توزيع بقية فراغات المنزل فلا يختـلف عما هو موجود في مناطق المـملكة الأخرى؛ فهنـاك أجزاء خاصة بـالضيوف من الـرجال، تدعى مجالس، وأجزاء خاصة بأفراد الأسرة، وهذا هو النمط السائد في غامد وزهران وبني مالك حتى الطائف.

وقد ظهر نمط معماري فريد اختصت به منطقـة عسير حيث تُبنى المـنازل من الحجر والطين، وهي ذات مساقط أفقية مربعة الشكل تصغر تدريجياً مع ارتفاع الأدوار. وتمتاز بوجود جدران صماء ذات خطوط عريضة هي في الواقع مداميك حجريـة متعددة وبـارزة على مسافـات منتظمة في صورة أحزمة كاملة تدور حول المنزل، وتمنع المطر من دخول المنزل عبر النوافذ والفتحات وبذلك تحمي المبنى من

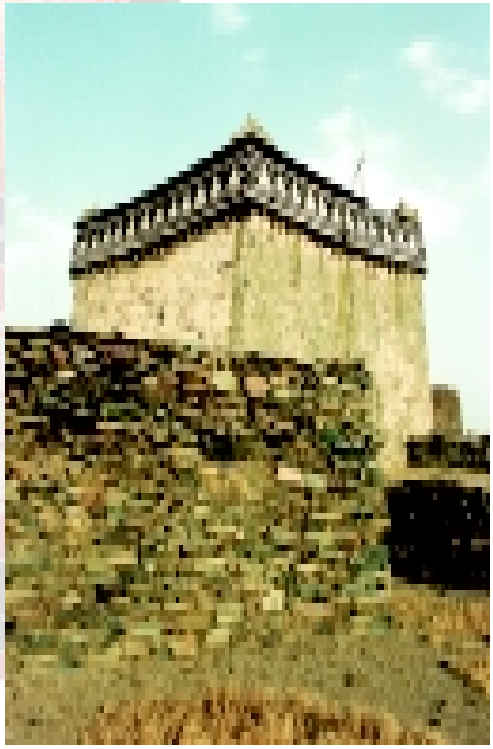

بناء المنازل من الحجارة والطين ويلاحظ الكحل (الباحة)

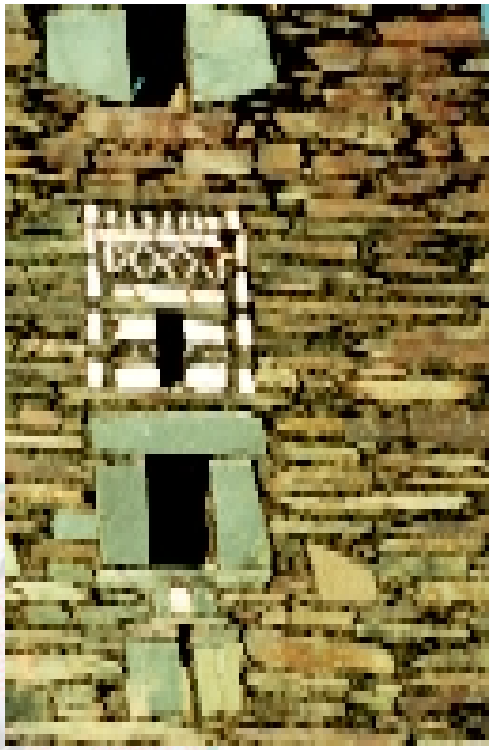

زخرفة بأحجار المرو للنوافذ من الخارج في قرية العكاس بعسير كما يلاحظ الكحل بين الحجارة

التشقق نتيجة الأمطار الكثيفة. وتعلو زوايا المنزل أنصاب علوية تصبغ بمواد مختلفة تعمل على إبراز هذه الأنصاب بصورة واضحة. ويمكن أن نميز طابعاً معمارياً آخر برز في تهامة المطلة على البحر الأحمر حيث توجد الأحواض الدنيا للأودية المنحدرة من جبال الحجاز والمتجهة إلى البحر الأحمر كأودية الليث والقنفدة وحلي وصبيا وبيش وجازان وغيرها. ونجد هنا أن الوحدة السكنية هي كوخ من الطين المدعم بسقف على شكل قبة يسمح لماء المطر بالجريان دون أن يؤثر على مادة البناء، مع وقاية القبة بحبال مجدولة تظهر تأثراً واضحاً بالأكواخ الأفريقية. وتتجمع الوحدات السكنية لأفراد الأسرة في هيئة أكواخ يحيط بها سور من الأشجار والأعشاب.

وباستثناء مباني العشش الشائعة في تهامة يمكن تصنيف العمارة في المنطقة الجنوبية، من حيث طرق البناء، إلى ثلاثة أنواع، هي: البيوت ذات الجدران المبنية من الحجر الخالص، والبيوت المبنية جدرانها من الحجر والطين، وأخيرا تلك المبنية من الطين الخالص. أما الأسقف فطريقة بنائها واحدة تقريباً في الأنواع الثلاثة.

تبنى الجدران في النوع الأول (الحجر الخالص) برص الحجارة المجلوبة من مقالع الأحجار بعد تهذيبها، ويعمل بها بناؤون متخصصون، وغالباً تثبت هذه الحجارة بعضها فوق بعض دون الحاجة للطين. أما في النوع الثاني فيبنى جدار من الحجر بارتفاع قامة الرجل، ثم يوضع الطين (الخُلب) على شكل طبقات تسمى مداميك، وكلما جفت طبقة أو مدماك يوضع عليها طبقة أخرى مع الرقف (صفائح حجرية) حتى يتم بناء الجدران. وقد يستغرق المدماك الواحد ثلاثة أيام

حتى يجف، وذلك لاتساع عرضه وسماكته. والخلب: طين يجلب من المزارع ويُخلط مع التبن المتبقي من درس القمح، ويداس بأظلاف البقر منذ الصباح حتى العصر ثم يجمع في مجموعات تحمل على ظهور الحمير إلى الموقع. وتستخدم الحمير في رفع الطين (الخلب) عبر درج المبنى لبناء المنازل التي قد تصل إلى خمسة طوابق. وفي النوع الثالث المبنيّ من الطين الخالص يستغنى عن وضع الأساس الحجري إذا كانت الأرض صلبة، ويبدأ بوضع طبقات الطين (المداميك) مباشرة فوق الأرض إلى أن يتم بناء الجدران بارتفاع دور واحد بعدها يبدأ استخدام الرقف.

وتتكون الأسقف في العادة من الخشب والطين، حيث تستعمل أخشاب العرعر والأثل والطلح حسب توافرها في موقع البناء. وفي منطقة الباحة لا يستخدم سوى شجر العرعر أو العتم (الزيتون البري) أما الباقي من الأشجار فلا يستخدم مطلقاً. وأجود أنواع الخشب في تلك المنطقة ما كان من العرعر. ويتم البناء بوضع الأخشاب متعارضة وتسمى المعدل والسواري، ثم ترص عليها حزم من أغصان شجر الطباق أو العرفج. ويجلب الصمغ المأخوذ من بعض الأشجار ويفرش على هذه الحزم، ثم يصب عليه الطين (الخلب) فيمتزجان ويكوّنان سطحاً قوياً يمنع دخول مياه

البناء من الحجر والطين في أبها

بناء البيوت من الحجر والطين في عسير

الأمطار. وهكذا يستمر بناء الأسقف لكل الحجرات. ويستخدم القصاص، وهو مادة شبه إسمنتية يتم تحضيرها بحرق بعض أنواع الصخور وطحنها وخلطها بالماء، يستخدم في دهان سطح السقف العلوي لزيادة تحمل مياه الأمطار.

وطريقة البناء بالأحجار متشابهة في جميع أنحاء المنطقة، إذ يبدأ البنّاء بتسوية الموقع المراد إقامة المنزل عليه، ثم يحفر قرابة نصف متر للجدار الأساسي للمنزل. وتجلب الأحجار الكبيرة من الجبال والأودية فتوضع بشكل منظم في تلك الحفرة التي يطلق عليها أحياناً اسم الرّبض. ثم يواصل البناؤون ومن يعمل معهم تشييد الجدران الرئيسية. ويختلف سمك جدار البناء من مكان لآخر، لكنه يتراوح بين ٨٠سم إلى متر أو مترين، وذلك حسب حجم السكن الذي يراد تشييده، من دور أو دورين، أو أكثر من ذلك. وكلما زاد عدد الأدوار المراد تشييدها، زاد سمك جدار البناء. ويرتفع الجدار في الدور الواحد حوالي ٣م، وبخاصة في الأجزاء السروية من المنطقة الجنوبية، وأقل من ذلك بقليل في الأجزاء التهامية والشرقية. كما يصمم الجدار الواحد من شقين الشق الخارجي، أو ما يسمى بالوجه، ويراعى في هذا الوجه اختيار الحجارة الجيدة ذات الأوجه المتساوية، حتى يكون منظرها جميلا. أما الشق الآخر فهو الجزء الداخلي، ويطلق على هذا الشق اسم القفا أو الخلف وفي كلا الشقين يضع البناؤون بين الحجارة الكبيرة في الجدار حجارة رقيقة صغيرة يسمونها ببعض اللهجات المحلية صَلْباً أو كَحْلا، بفتح الصاد والكاف وتسكين اللام والحاء، وذلك ليظهر الجدار بشكل جميل خال من الفجوات. كما يوضع بين الوجه والقفا في الجدار حجارة صغيرة مع الطين، لكي يتماسك الجدار،

بناء المساكن من الحجر الخالص

بعضه مع بعض، وفي الغالب يسمى الجدار بشقيه، وما بداخله مدماكاً، وبهذه الطريقة يتم تشييد جميع جدر المنزل مهما كان حجمها.

وعندما يتم تشييد جدران الدور الأول يسقف السطح بالأخشاب والتراب. وتمر طريقة التسقيف ببعض الخطوات، فتجلب الأخشاب الكبيرة من الجبال والأودية الخاصة بأهل القرية، وفي الغالب تكون تلك الأخشاب من شجر العرعر أو الطلح، أو العتم (الزيتون البري) أو السمر. ويطلق على الخشبة الواحدة اسم بطنه (جمعها بطن) ويجلب معها أيضاً أغصان صغيرة الحجم ومستقيمة تسمى مراكب (مفردها مركاب)، وفي غامد وزهران تسمى الجريد ثم تشذب وتنظف الأخشاب (البطن) الكبيرة، وتوضع على كل غرفة على أن تكون متصلة من جدار إلى آخر.

وعندما تكون الغرفة عريضة، ولا تصل الأخشاب المجلوبة من جدار لآخر، يؤتى بأربع أو خمس خشبات أكبر وأطول وأقوى، تسمى في بعض اللهجات المحلية في عسير والباحة سواري (مفردها سارية). وتمد على عرض الغرفة، وبعدها يرتب الخشب الباقي (البطن) بشكل طولي ومتقابل على الغرفة التي وضعت عليها السواري، بحيث يكون أحد أطراف الخشب (البطن) على جدار الغرفة، والطرف الثاني على السواري.

ثم تفرش المراكب على البطن، وتغطى ببعض النباتات والشجيرات، كنبات العرفج وغيره. وأحياناً توضع فرش الطفي أو سعف النخل على المراكب ثم يُغطى السطح كاملاً بالطين، وبسمك فوق المراكب يبلغ ١٥سم إلى ٣٠سم. بعدها يغطى بالتراب، وعند ذلك يكون الدور الواحد قد اكتمل تعميره. ثم تتبع نفس الطريقة الآنفة الذكر في تشييد الأدوار الأخرى، إذا كان المنزل يتكون من دورين أو أكثر. وهذا في الغرف الصغيرة، أما المجالس الكبيرة فلا بد لها من دعامات في الوسط.

وتصنع الأبواب والنوافذ من شجر الطلح والعرعر، وهناك مهنيون تخصصوا في هذه الصناعة. ففي منطقة الباحة قرية المكارمة في مدينة بلجرشي اشتهر أهلها بفن النجارة، وانتشروا في مختلف قرى المنطقة لأداء هذه المهمة. وتجلب جذوع الأشجار إلى الموقع ثم تفصل إلى شرائح وتصنع منها الأبواب والنوافذ، ثم تنحت وتزخرف، ويقوم صاحب البناء بشرائها جاهزة للتركيب. وفي بعض المناطق يراعى في مساحات الأبواب والنوافذ صغر الحجم، فلا يستطيع الرجل متوسط الحجم الدخول من أغلب النوافذ المصممة في المنازل القديمة. كما أن مداخل الأبواب تكون صغيرة ما عدا أبواب غامد وزهران فإنها ذات طول عادي، كما أن مداخل الأحواش والسفول وهي أمكنة مبيت الحيوانات تسمح بدخول الجمل. وإذا كان المنزل الواحد مكوناً من عدة أدوار في غامد وزهران، فيغلب أن تكون نوافذ وأبواب الأدوار السفلى أصغر من الأبواب والنوافذ في الأدوار العليا. وربما يعود ذلك إلى الخوف من اللصوص الذين قد يداهمون البيت ليلاً، أو أثناء غياب صاحبه. وربما كان الحصول على الدفء والتخفيف من دخول الهواء البارد سبباً آخر في جعل فتحات الأبواب والنوافذ صغيرة نوعاً ما.

أما البيوت الطينية فهناك طريقتان لبنائها. في الطريقة الأولى يبنى الأساس بالحجارة، وبارتفاع يتراوح بين متر إلى مترين، ثم يستكمل بناء الجدر بالطين. والتأسيس لهذا النوع من البيوت يشبه تأسيس المنازل الحجرية. والطريقة الثانية، أن يشيد البيت من الأساس بالطين، ويختار للبناء بالطين التربة الجيدة التماسك، فيؤتى بها، ثم يخلط معها التبن المتبقي من درس القمح والشعير، وتمزج بالماء وتدرس بأظلاف وحوافر الحيوانات (كالبقر والحمير) لعدة ساعات، وأحياناً ليوم أو يومين. بعد

البناء بالطين الخالص

ذلك يجمع الطين المدروس وينقل إلى مكان البناء، فيوضع على هيئة جدار أو (مدماك)، ويترك بعض الوقت حتى يجف، ثم يستمر العمل على هذا النهج حتى يتم بناء جدران الدور الأول أو الأدوار المراد تشييدها.

ويتم التسقيف وعمل الأبواب والنوافذ بالطريقة المتبعة في تعمير البيوت الحجرية. وما زلنا نلاحظ البيوت الطينية في أمكنة متفرقة من بلاد قحطان وشهران، ومدينة أبها وما حولها، ومحائل، وبارق، وبعض الأجزاء التهامية الأخرى أشكالها هرمية، أو أسطوانية، أو مربعة، أو مستطيلة. ويشاهد على جدران بعضها من الأعلى حجارة مبسوطة رقيقة مرصوص بعضها فوق بعض، يطلق عليها في بعض اللهجات المحلية اسم رقف. وفائدة هذه الحجارة أنها تساعد على تماسك الجدار الطيني، كما تقيه من تأثير الأمطار.

ومنازل القش والأشجار توجد بكثرة في الأجزاء التهامية الممتدة من جازان إلى القنفدة، وفي بعض الأجزاء الشرقية، مثل بيشة وما حولها، ومنها ذات الأشكال المخروطية أو المربعة، أو الدائرية، أو المستطيلة. ومن أهم أنواع هذه البيوت، العشة، والعريش، والصبل، وهي تبنى من أخشاب الأشجار المحلية كالدوم والسلم، والسمر، والنخل، والأثل. ولبناء العشة يتم اختيار

مكان البناء، ثم يحفر الأساس، بعدها يؤتى بالأخشاب الثقيلة فتغرس رأسياً في حفر الأساس وبشكل مرتب، وبارتفاع يتراوح من ٢,٥ م إلى ٣م تقريباً، وتربط تلك الأخشاب الكبيرة بحلقة تسمى الجرائح، وهي أعواد صغيرة يسهل استخدامها ولفها حول محيط العشة. وتستمر عملية البناء إلى أعلى وبشكل تدريجي حتى تنتهي إلى رأس العشة. ويطلق على الرأس عند بعض السكان في تهامة اسم القرعينة. بعد ذلك تأتي مرحلة الكساء الذي تغطى به العشة، ويكون الكساء من القش وأغصان الأشجار. تربط العشة من الأسفل بحبال المرخ، ويسمى ذلك الربط بالوزرة، ويستمر إلى الجزء الأعلى الذي يسميه بعض الأهالي البديم فيربط أيضاً بحبال المرخ أو الطفي. ويضاف على العشة، من الأعلى إلى الأسفل، حبال أخرى حتى تصير قوية ومتماسكة بشكل جيد. أما العريش والصبل فمواد بنائها أيضاً من الأخشاب والقش، وأغصان الشجر وأوراقه، إلا أن الصبل يكون في بعض الأحيان بمثابة ملحق للعشة، يستخدم إما مطبخاً لطهي الطعام، أو مجلساً لاستقبال الضيوف، خاصة عند الأغنياء وميسوري الحال. أما عند بعض الفقراء فيعد منزلهم الأساسي. وبعض المنازل التي تكون على هيئة صبول تترك جوانبها مفتوحة، أو يترك لها باب واسع لتكون جيدة التهوية، والعشة في الغالب تكون أبوابها صغيرة، وبعض العشش لها بابان، أما العريش فغالباً ما يكون مفتوح الجانبين، ويستخدم لسكن الحيوانات، أو لأغراض أخرى متعددة.

وجميع البيوت الحجرية أو الطينية أو الشجرية تتشابه في إحاطتها بأسوار أو أحواش. فالذين يستخدمون الحجر أو الطين في بناء منازلهم، يحيط بعضهم داره بسور من الحجر أو الطين، ثم يوضع فوق أعلى السور أغصان الشوك أو بعض الأشجار ذات الاشواك لتحمي البيت من اللصوص أو البهائم، أو الوحوش المفترسة ويسمى الزرب في غامد وزهران، وهو لحماية المزارع، ومن أمثالهم «الزرب هيبة ولو كان خيبة». ويوضع حول المنازل المبنية من الأشجار أسوار من الأخشاب والأشجار المستخدمة في بناء العشة أو العريش أو الصبل.

وبعد اكتمال الهياكل الأساسية للمنازل، تأتي مرحلة أخرى، هي تزيين المنزل من الداخل، فتكسى الجدران الداخلية والأسقف والأرضيات بالطين الأصفر أو البني، وأرضيات بعض منها

مخططة بالطين تخطيطاً نصف دائري أو ذات أشكال مستطيلة أو مثلثة أو مربعة. وأحياناً يكون في بعض الحجرات خط أفقي عريض يطوق الغرفة ويبلغ ارتفاعه من مستوى الأرضية حوالي نصف متر تقريباً، مطلي باللون الأخضر، يليه من الأعلى عدة أشكال صغيرة متناغمة الألوان بين الأحمر، والأسود، والأخضر والأصفر، وبهذه الأشكال والألوان العجيبة مربعات، ومثلثات، وأهرامات، وأزهار ونحوها، في مظهر متناسق فني بديع. أما الأسقف فتلون أحياناً بالألوان المختلفة، وكذلك الأبواب والنوافذ، وأحياناً تطلى المداخل الرئيسية للمنزل ويرسم عليها بعض النقوش الجميلة المتناسقة. كما قد تطلى النوافذ والأبواب بمادة القطران المستخرجة من بعض الأشجار المحلية، وربما رسم على بعضها رسوم طبيعية جميلة. وتقوم النساء بتزيين بيوتهن من الداخل سواء كانت هذه البيوت مبنية من الحجر أو الطين أو الأشجار. فيغطين جدرانها بالطين المخلوط مع التبن، وأحياناً مع روث البهائم. وبعد أن يجف الجدار يطلى بمسحوق أبيض، ثم ترسم عليه بعض النقوش والزخارف الجميلة.

وكانت المساكن القديمة من طابقين أو أكثر، حسب الحاجة والإمكانيات المادية لصاحب المنزل. وكانت تقسم من الداخل إلى ثلاثة أقسام بحيث تكون الأجزاء القريبة من الأرض، كالطابق الأرضي، عادة للحيوانات ولحفظ الحبوب، أو كمستودع للأدوات الزراعية والأمتعة.

وتستخدم الأجزاء المرتفعة (الدور الأول والثاني) للسكن، وهما في أغلب الأحيان من غرفة للجلوس اليومي، ومجلس للضيوف، ومقلط (غرفة الطعام) للضيوف، وغرف للنوم. ونلاحظ في توزيع السكن بطرازه القديم قلة عدد الغرف وتجمع أفراد الأسرة في مكان واحد في أغلب الأحيان. وقد يكون الطابق الواحد بأكمله من غرفتين فقط.

أما المطبخ (الملهب) أو الملة كما تسمى عند أغلب أهل السراة فيجعل في أعلى البناء، كي لا يمتلىء المنزل بالدخان الناجم عن إشعال الحطب والفحم المستعمل في ذلك الوقت. وبالنسبة للاغتسال فهناك المطهر، وهو مجرى الماء، ويستعمل للوضوء في المنزل فقط. أما قضاء الحاجة فكان يتم خارج المنزل، بل وخارج الحي أحياناً. ومن الواضح أن جميع أعمال البناء السابقة كان يقوم بها مالك المنزل بمساعدة عشيرته أو أهل قريته، وفي بعض الأحيان يستأجر من يقوم بمساعدته.

الحصون والقصبات والقصور

في السروات كثير من المباني العالية التي تسمى الواحدة منها حصناً أو قصبة، وهي مبنية بالطين، أو الحجارة، أو بكليهما، وقد صممت مداخلها تصميماً محكماً يجعل من الصعب اقتحامها. وكان الهدف من الحصن، أو القصبة السكن أو المراقبة والدفاع. ومن الحصون والقصبات ما كان يصلح لحفظ الحبوب وعلف الحيوانات. وللحصن قاعدة مربعة أو مستطيلة، وهو أكبر مساحة وحجماً من القصبة، ويقيم أصحابه فيه. أما القصبة فغالباً ما تبنى على المرتفعات، وتكون لها قاعدة دائرية، والقصبة لا تتسع إلا لعدد قليل من الرجال يرابطون فيها فترة قصيرة للمراقبة والدفاع. وكان أهل السروات، مثل سكان بلاد ما بين النهرين، يعمدون أحياناً إلى إشعال النار وإطلاق الدخان إيذاناً بالخطر.

ويعنى أصحاب الحصون والقصبات بها عناية فائقة، ويحرصون على أن تكون قوية منيعة، بل جميلة كذلك، فيزينون أبوابها ومنافذها وأجزاء من واجهاتها بأحجار المرو، كما يسمونها بأسماء جميلة مثل حصن بهجة وأحياناً تُسمى باسم موقعة مثل حصن عميصة وهي تعني الغبن. وما زال أصحابها يقيمون فيها أو قربها، ويستخدمونها في أغراض أخرى كحفظ مؤنهم ومتاعهم. وللحصون والقصبات نوافذ صغيرة للإضاءة والتهوية، حيث تملأ بالأعشاب الشائكة حتى لا تمر منها الطيور أو الحيوانات الصغيرة. وتحفظ الحبوب المخزونة في الحصن أو القصبة عدة سنوات، إما بنشرها داخل غرف الخزن، أو بوضعها في أكياس تصنع من القش. وقد يكون الحصن أو القصبة لشخص أو أسرة، وقد يكون ملكاً لأهل القرية، وفي هذه

قاعدة أحد الحصون الحجرية

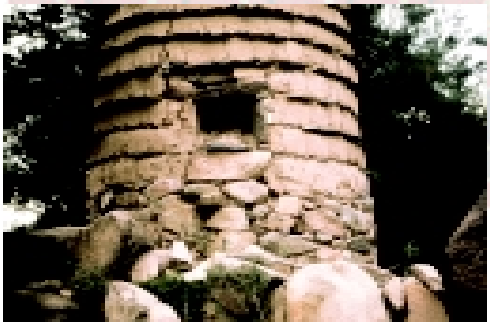

قصبة دائرية في عسير

الحالة تستعمل كل جماعة طابقاً من البناء. وما زالت هذه الحصون والقصبات تثير الإعجاب والتقدير.

والحصون في السروات نوعان: خاص وعام فالخاص هو ما كان ملكاً لأسرة أو لحمة ويمكن الاستفادة منه في السكن والتخزين. أما العام فيُبنى عادة على حدود القرى أو القبائل، وهو خاص بالحماية والحروب. وتكثر الحصون والقصور في السراة، وبخاصة في الأجزاء السروية الواقعة بين نجران جنوباً، وزهران شمالاً. ولا يزال العديد من الحصون والقصور التي نشاهدها في هذا الجزء، ماثلاً للعيان على ما أصابها من الخراب والدمار، حتى إن بعضها لم يبق منه إلا جزء يسير، وبعض آخر أوشك على الانهيار، أو هو آيلٌ إليه إذا لم يجد من يصونه ويحافظ عليه. وربما يعود تاريخ بعض الحصون والقصور إلى مئات السنين. ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن المجاور عندما وصف بعض الحصون والقصور في بلاد السراة، فقال «وقد بني في كل قرية قصر من حجر وجص، وكل من هؤلاء -يقصد أهل السراة- ساكن في القرية له مخزن في القصر، يخزن في المخزن جميع ما يكون له من حوزه وملكه، وما يؤخذ منه إلا قوت يوم بيوم، ويكون أهل القرية محتاطين بالقصر من أربع ترابيعه» (ابن المجاور ١٩٥١:) وهذا الوصف الذي سجله

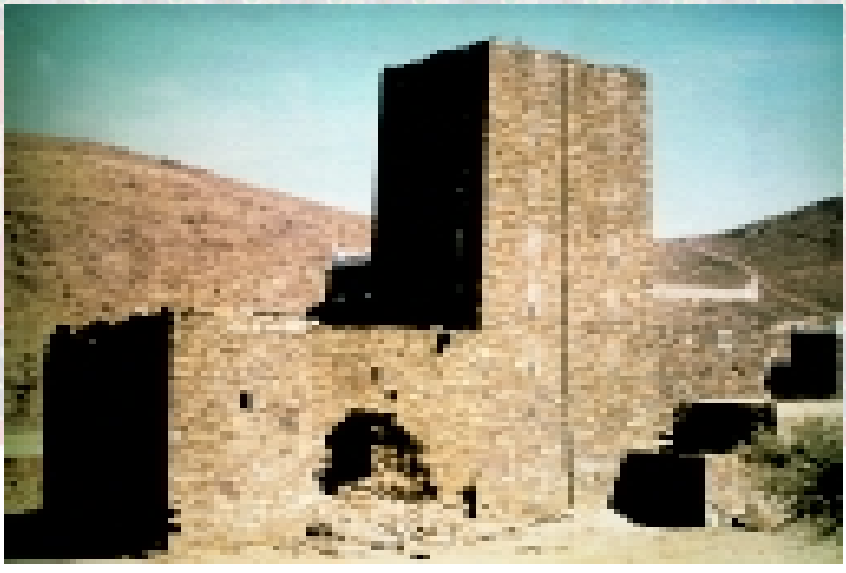

حصن حجري شمال أبها مع تزيين نوافذه بحجارة المرو

ابن المجاور من القرن السابع الهجري، لا يزال ينطبق على طبيعة وهيئة بعض الحصون المهجورة في بعض قرى السراة من الطائف إلى عسير.

والقصبات ليست معروفة في منطقة الباحة. أما الحصون هناك فلا تستخدم كمخازن للمدينة بل يقتصر استخدامها في زمانها على الدفاع في حالة وقوع هجوم على القرية أو القبيلة، وكانت توجد في كل جهة منها فتحتان أو أكثر تسهل لمن في داخل الحصن المراقبة ورمي المهاجمين بالبنادق. والحصن في الباحة عبارة عن بناء يصل ارتفاعه إلى نحو ٢٠م في السهل، ونحو ١٠م في الجبال، وهو بناء مجوَّف غير مسقوف، في كل جهة منه أوتاد حجرية يقف عليها المراقبون الذين يتحولون إلى مدافعين حال وقوع الهجوم. أما القصبات فلعلها المحاجي (ومفردها محجاه) وهي بناء بين صخور أو كهوف جبلية من مدار واحد كانوا يبنونه بالحجارة فقط، وله مدخل من الخلف وفتحات أمامية، كانوا يراقبون منها، ومنها تخرج سبطانات البنادق للإطلاق حال وقوع هجوم.

وتختلف مواد بناء الحصون والقصور، وبخاصة في البلاد السروية، فالبعض منها مبني بالحجارة والطين معاً، والبعض الآخر يؤسس له بنحو مترين أو ثلاثة من الحجر ثم تستكمل من الطين، ومنها ما هو مبنى من الطين فقط. والحصون المشيدة من الحجر مع الطين تكثر في بلاد غامد وزهران، وبلقرن وشمران، وخثعم، وبلاد الحجر. أما الحصون والقصور المبنية من الطين فهي كثيرة في بلاد قحطان وشهران، وديار عسير الرئيسية. والأسباب في هذا الاختلاف تعود إلى ما ذكرنا سابقاً من حيث توافر المواد الأساسية للبناء، سواء كانت من الأحجار أو الطين.

حصن مبني من الحجارة والطين

حصن مبني من الطين الخالص

حصن حربي

أما الحصون أو القلاع التي شيدت من أجل هدف حربي دفاعي فقد وضعت على رؤوس الجبال أو في الأودية أو بعض المناطق الاستراتيجية التي يستطيع المحارب أو المدافع استخدامها على أحسن وجه ضد العدو. ويتم بناء هذه الحصون بطريقة جماعية يشترك فيها أهل القرية أو العشيرة الواحدة، أو من له مصلحة حتى لو كان من قرية أو عشيرة أخرى. وتتفاوت هذه الحصون في عدد طوابقها وفي سعتها، ولا يزال العديد من الحصون المختلفة موجوداً على قمم الجبال، وفي بعض الأودية والوهاد والهضاب، وبداخل بعض القرى في أنحاء الإقليم. وقد تكون بعض الحصون الواقعة في القرى، أو بالقرب من المزارع، ملكاً لأسرة أو لعدة أسر مرتبطة بجد واحد، شيدوها لأجل استخدامها في الدفاع، أو في حراسة مزارعهم وتخزين حبوبهم وأعلاف بهائمهم.

أما القصور فتوجد، غالباً في المراكز الحضرية الكبرى، كبيشة والنماص وتنومة وأبها وخميس مشيط وجازان وأبي عريش والقنفذة وبلجرشي والظفير

ورغدان والمندق والمخواة وفي بعض القرى المجاورة للمراكز المذكورة آنفا. وتختلف أحجام ونوعيات القصور من مكان لآخر، ومن أسرة لأخرى، حسب الإمكانيات والقدرات المادية. ونشاهد الآن العديد من القصور المهجورة في طول وعرض الإقليم السروي، وبعضها مبني بالحجارة ومطلي من الخارج بالجص، وأحياناً منقوشة بحجر المرو، والبعض مبني بالطين أو بالطين والحجر معاً. وتزيين القصور من الداخل يعتمد على القدرة المالية لأصحابها، فكلما كانت أحوال صاحب القصر جيدة، انعكس ذلك على نقش وزخرفة القصر من الداخل، وعلى الأثاث والأدوات المستخدمة فيه.

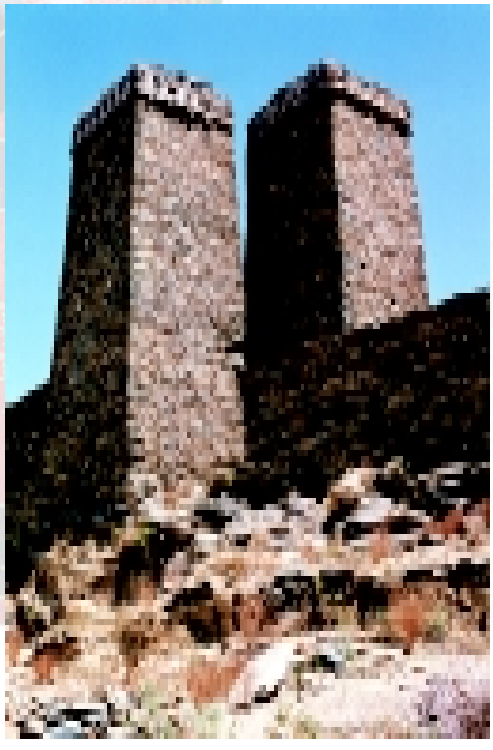

حصن حربي مزدوج

وبعد أن ألقينا نظرة مختصرة على العمارة التقليدية في المنطقة الجنوبية بصورة عامة، ننتقل فيما يلي إلى استعراض موسع للأقاليم الطبيعية الأربعة في المنطقة الجنوبية، وطرز العمارة التقليدية في كل منها. هذه الأقاليم الطبيعية التي تكون المنطقة الجنوبية هي من الغرب إلى الشرق: سهول تهامة، الأصدار، جبال السروات، والهضبة الداخلية.

سهول تهامة

أطلق العرب اسم تهامة على المنطقة الواقعة بين جبال الحجاز شرقاً وساحل البحر الأحمر غرباً، وهي سهل يمتد بشكل شريطي من الشمال إلى الجنوب، ويتراوح عرضه بين ٢٠-٥٠ كم. وتبدأ تهامة من جنوب جدة، ويزداد اتساعها كلما اتجهنا جنوباً نحو منطقة جازان. وتضيق تهامة في شمال جدة حتى تكاد تختفي، إذ تصبح الجبال ملاصقة لساحل البحر الأحمر.

تمتاز تهامة بأنها منبسطة بصفة عامة وممتدة بمحاذاة شاطئ البحر الأحمر،

ويرتفع سهلها تدريجياً كلما اتجهنا شرقاً وتعترضه أحياناً تلال قليلة الارتفاع، ويشمل سهل تهامة المنطقة التي يتراوح ارتفاع سطحها بين مستوى سطح البحر و٢٠٠م، ويمكن تمييز ثلاثة مظاهر في سهل تهامة، هي أحواض الوديان والخبت والسباخ، فأحواض الوديان التي تنحدر من الجبال سهول واسعة تكونت على جوانب تلك الوديان، ومعظم تلك السهول صالحة للزراعة وفيها معظم المستوطنات. أما الخبت فيشكل معظم مساحة سهول تهامة، وهو سهول في الأراضي البعيدة عن الوديان، ويغلب أن تتكون هذه السهول من التربة الرملية، وفيها النباتات العشبية ويقل بها الاستيطان. والسباخ سهول ذات تكوينات ملحية تمتد محاذية للشواطئ مسافة عدة كيلومترات وبعرض يصل ما بين ٤كم إلى ٥كم، وهي قاحلة وخالية باستثناء بعض النباتات التي تتحمل الملوحة. وتلاحظ قلة الاستيطان في هذه المساحة باستثناء بعض الموانئ التي تعتمد على البحر كمصدر أساسي لنشاطها الاقتصادي، مثل مدينة جازان.

أما الأمطار فإنه على الرغم من وجود سهول تهامة على ساحل البحر الأحمر، إلا أن المنطقة تعد من أقل أقاليم المملكة مطراً، إذ يتفاوت المعدل السنوي في جازان ما بين ٥٠ملم و٦٨ملم في الدرب و٤٧ملم في صامطة. وهذه الأمطار تسقط بدون انتظام إلا أن سقوطها يزيد خلال فصلي الشتاء والربيع.

وتعتمد مصادر المياه في تهامة على مياه الوديان حيث تنحدر المياه بعد هطول الأمطار على سفوح الجبال وتشكل فيضانات سريعة فجائية، وقد تجري بعض الأودية لعدة أشهر بسبب استمرار هطول الأمطار على الجبال. ولقد استفاد السكان من مياه الوديان في تشكيل مصاطب رسوبية وذلك بعمل سدود ترابية على جوانب مجاري الأودية وسحب مياهها إلى المصاطب لغمرها بالمياه ومن ثم زراعتها. كما حُفرت الآبار بالقرب من مجاري الوديان للشرب وري الحقول. أما مياه الأمطار الشحيحة فلا يمكن الاعتماد عليها في الزراعة، ولهذا تنتشر معظم القرى التقليدية في تهامة على جوانب الأودية حيث تتوافر المياه والأراضي الصالحة للزراعة. وتزيد كثافة الاستيطان في أودية سهل تهامة كلما اتجهنا جنوباً، إذ تزيد كمية المياه. وتعد وديان تهامة من أغنى وديان المملكة، كما أن بعضها قريب من بعض، بمعدل وادٍ لكل ١٤كم

على خط الشاطئ (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ١٤١). وقد أنشأت بها وزارة الزراعة والمياه مشاريع مائية على الوديان الرئيسية في هذه المنطقة كالمشروع الذي أقيم على وادي جازان.

أما مناخ تهامة فهو مداري، إلا أنه يختلف من حيث التفاصيل الدقيقة من مكان إلى آخر. ففي منطقة جازان مثلاً تزيد معدلات الحرارة في جميع أشهر السنة على ٢٥° مئوية، وتصل درجات الحرارة العظمى إلى ما يقارب ٥٠° مئوية. ولا يتجاوز معدل الفرق اليومي بين درجات الحرارة عن ١١° مئوية. وتبلغ معدلات الحدود القصوى والحدود الدنيا للحرارة الشهرية ٢٥° مئوية، ٢٦° مئوية على التوالي. وبذلك تكون سهول تهامة من أكثر أقاليم المملكة حرارة في فصل الشتاء ولا تشهد فصلاً بارداً على الإطلاق.

ونظراً لوقوع تهامة على ساحل البحر الأحمر وتعرضها للرياح التي تهب عليها من الناحية الغربية (جهة البحر)، تزيد الرطوبة النسبية على ٦٠٪ في جميع أشهر السنة، وتقترب في أحيان كثيرة من درجة التشبع. ويزيد من قسوة المناخ موجات الرياح المترية التي قد تستمر لحوالي أربعة أشهر خصوصاً في فصل الخريف. ومع زيادة نسبة الرطوبة تتحول المنطقة في هذا الفصل إلى حمام ساخن.

وتختلف ظروف الاستيطان في تهامة قليلاً عنها في منطقة جبال السراة بسبب اتصال منطقة تهامة بالبلاد الأخرى عن طريق البحر، مما سهل على سكانها الانفتاح على شعوب شرق أفريقيا، التي تعيش على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر. وقد أثر ذلك على أسلوب الحياة ونمط البناء التقليدي. بينما نجد أن سكان السراة ممن قدموا من اليمن بعد انهيار سدّ مأرب عام ١١٥ق.م. هم أقل اتصالاً بالشعوب الأخرى، ولذا بقي مستوطنو الجبال أو البادية أكثر تماسكاً وأكثر تأثراً بالتنظيمات القبلية.

يعمل معظم سكان أهالي تهامة في الزراعة وتربية الحيوانات وصيد الأسماك. ويسود هذا النمط الحياة الريفية في المنطقة بصفة عامة ولا يقتصر ذلك على القرى فحسب بل يمتد كذلك إلى مدنها حيث يمارس سكان المدن الزراعة بالإضافة إلى التجارة والحرف اليدوية والنقل والخدمات. وكانت المدن إلى وقت قريب قرى كبيرة اتخذت كمراكز لتبادل المنتجات وتوزيعها ثم نمت إلى أن صارت مدناً، بسبب اتخاذها مراكز إدارية وتنميتها عمرانياً.

وعاش معظم سكان تهامة سواء من المزارعين أو الرعاة أو الصيادين حياة كفاف واكتفاء ذاتي، مما دفع عدداً كبيراً منهم، خصوصاً الشباب، إلى الهجرة إلى مدن ومناطق المملكة للبحث عن مستوى معيشي أفضل، لا سيّما في عهد النهضة الاقتصادية الحديثة. والحقيقة أن نمط الحياة في القرى التقليدية تعرض لتغييرات جذرية بسبب الطفرة الاقتصادية التي مرت بها المملكة، إذ هجر كثير من مزارعي الحياض في سهول تهامة أراضيهم الزراعية، خاصة تلك البعيدة عن مجاري الوديان، واستقروا بالمدن.

وينتمي معظم سكان تهامة إلى قبائل تعيش بكاملها على الساحل وإلى بطون من قبائل السراة تعيش في تهامة، خصوصاً في المناطق القريبة من الأصدار. ولا تختلف العادات والتقاليد كثيراً عن تلك الموجودة في قبائل السراة، وإن كان سكان القرى والمدن القريبة من الشواطئ أكثر انفتاحاً وتأثراً بالحضارات الأخرى.

ولقد كانت تهامة أكثر استقراراً من منطقة السراة، رغم أنها مرت بمراحل متعاقبة من الهجمات الخارجية. وقد تعاقبت عليها عدة حكومات مختلفة، منها إمارة المخلاف السليماني، إمارة أشراف مكة، والحكم العثماني، وآل عائض، والأدارسة الذين حكموها إلى أن ضمت إلى حكومة جلالة الملك عبدالعزيز. لكن هذه التغيرات السياسية لم تؤثر كثيراً في عمارة المنطقة التقليدية، إلا أنها أوجدت بعض المباني الدفاعية الجديدة على المنطقة، مثل قلاع الأتراك.

العمران وأنماطه في سهول تهامة. ترتبط القرى بالمزارع وتتوزع على جوانب الأودية على هيئة تجمعات عمرانية متتابعة تمتد من قاعدة جبال السروات إلى قرب شاطئ البحر الأحمر. وتقل التجمعات السكانية على الشاطئ، فعلى الرغم من غنى البحر الأحمر بثرواته الطبيعية خاصة الأسماك واللؤلؤ والمرجان، إلا أن وجود الأرصفة والشعاب المرجانية في الشواطئ وندرة الأراضي الصالحة للزراعة لم تشجع الاستيطان على الشواطئ، فلم ينشأ إلا عدد قليل من القرى المتناثرة. وغالباً ما تتعامد مواقع القرى التقليدية مع شاطئ البحر الأحمر وفقاً لمجاري الأودية، وليس كما يعتقد البعض أنها موازية للشاطئ أو واقعة عليه. وتتوزع القرى وفقاً للملكيات العامة على مستوى القبيلة والخاصة على مستوى اللحمة/العشيرة، خصوصاً القرى القريبة من جبال السروات حيث يغلب عليها النمط القبلي في الاستيطان.

وتتكون أغلبية استعمالات الأراضي في القرية من المساكن (الدار بما تحويه من عشش وخدمات)، إضافة إلى الفراغات الخارجية من ساحات ودروب تربط المساكن بعضها ببعض، وتربطها بالبيئة المحيطة من مزارع ومراعٍ، أما الاستعمالات الأخرى فقليلة، إذ لا يوجد غالباً إلا المسجد الذي يأخذ موقعاً متوسطاً في القرية. ومن دراسة الكتلة العمرانية (المباني) والفراغ العمراني (الأحواش والشوارع والساحات والأراضي البيضاء) لجزء من القرية، يلاحظ أن نسبة الفراغ العمراني أكبر بكثير من نسبة الكتلة العمرانية، وذلك يعود إلى كبر مساحات الأحواش المفتوحة داخل الدار، فالدار مساحة كبيرة محاطة بسور من القش، وبها عشة أو عشتان ومكان للماشية، أما بقية المساحة فمفتوحة، إضافة إلى الفراغات العمرانية الخارجية التي تشكل الدروب والساحات المفتوحة، وهذا التكوين يتلاءم مع المناخ وطبيعة الأرض المنبسطة، فيسهل مرور الرياح بين المساكن مما يساعد على تلطيف الأجواء.

وتشكل البيوت النباتية المصنوعة من أغصان الشجر والحبال المجدولة، النمط السائد للمساكن التقليدية في تهامة. ويفضل السكان بيوت العشش لسهولة إقامتها بالقرب من أماكن عمل أصحابها، فتقام بالقرب من المزارع والوديان وعلى رؤوس الروابي، بحيث يمكن لصاحبها مراقبة ما يدور حولها. كما أنها تلائم المناخ الحار الشديد الرطوبة إذ يسهل على الهواء تخللها، فبعض العشش تبنى منفصلة عن بعض وهي ذات شكل هرمي وسقف عال وفتحات موجهة نحو مصدر الهواء، ولاً توجد في تهامة الآن قرى مبنية بالكامل من العشش، إلا عشش فردية لعوائل فقيرة، أو عشش مهجورة متناثرة تزيد في المناطق النائية وتقل كلما زادت النهضة العمرانية في القرية. ويكون بيت العشش، أو ما يسمى الدار، من سور بداخله عدد من العشش. ويبنى السور عادة من الأخشاب والقش أو من زبير (عقم من طين حول الدار). ومجموعة الدور أو المساكن وهي القرية بدروبها المتعرجة الضيقة التي تصب في ساحات مركز القرية أو المسجد، كما تتصل بالمزارع ومصادر المياه. وإلى جانب العشاش التقليدية ثمة مبان من الطوب الأحمر المكسو بالجص، مع أن هذا النوع من المباني مقتصر على بيوت الأثرياء والمساجد والمحلات التجارية والمباني العامة والقلاع والأسوار.

وينتشر العمران التقليـدي في سهل تهامة على سواحل البحر الأحمر وعلى ضفاف الأودية الزراعية على هيئة قرى أو بيوت منفردة، وكـان معظم السكان يعمل بالزراعة، إضافة إلى صيد الأسماك في القرى الساحلية. ونتيجة لموقع المنطقة الاستراتيجي وموانئها البحرية وخطوط التجارة البرية، استقرت بهذه المنطقة فئات مختلفة وأقامت مساكن لها ذات أشكال متنـوعة. ويعود هذا التـنوع إلى قدوم هجرات بشرية اسـتقرت بهذه المنطقة، وإلى احتكاك تجار المـنطقة بغيرهم عبر رحلاتهم التـجارية إلى مناطق أخرى، وجلبهم العديد من الأفكار والمشاهدات المستوردة وتنفيذها بالمنطقة.

مباني الطوب الأحمر المكسو بالجص.

من أشهر المـناطق التي يتـوافر بها هذا الـنمـط، جزر فـرسان. وأهـم المـواد المستعملة في هذا النوع من المباني الطوب الأحمر، وكـانت هناك بعض المـصانع الشعبيـة الصغيرة التي تسـمى المحاريق وفيـها يتـم تشكـيل الـطوب بالمـقاس المـطـلـوب، وقـيـاسـه عـادة ١٧سم×١٢سـم×٢٠سم، يـحرق في الأفران الخاصـة، ثم ينقـل إلى أماكن البنـاء. ويستخدمـون صخور البازلـت السوداء التي كانـت تجلب على الجمال من الحرات الموجودة فـي سهل تهامة. أما الجص (وهو مادة جيرية طبيعية تشبه الجبس في تركيبها إلا أن سرعة تصلبها أقل) فيستخرج من التلال الجيرية المنتشرة في المنطقة، وخاصة فـي جزر فرسان، ويستعمل مونة لاصقة يكسى بها السطح الخارجي للحوائط. وقد يستعمل الطين الأحمـر مونة لاصقـة بدلا من الجص لسهولة استخراجه وتوافره. أما جسـور الأسقف فـيتخذونها مـن جذوع شجر الدوم أو(السرو)، وهي أخشاب سوداء طويلـة ذات ألياف متينـة تتحمل قـوى الانحناء وتـقاوم التآكل سنـين طويلة. بالإضافة إلى المض وهو أعواد مستقيمة مرنة ذات مقاومة عالية أيضاً، وتستخدم لعمل طـبقة السقف الـتي تفرش على جسور الدوم.

أما طريقة البناء فهي الطرق المعروفة لبنـاء الحوائط الحاملـة، وتبدأ بتحـديد المسقط الأفـقي على الأرض حتى يـتم حفر الأساس، وهو خندق عمـقه نحو متر وعرضه أقل من متر وقد يزيد عليه، ثم ترص فيه صـخور كبيرة الحجم من البازلت الأسود حتى مستوى الأرض. وتبدأ عمليـة بناء الحائط برص الطـوب الأحمر باستخدام مونة الطين أو الجص، مع التطعيم بصخور صغيرة أو متوسطة

الحجم من أحجار البازلت الأسود، لتزيد من متانة الحائط، ويتراوح عمق الحائط بين ٨٠سم إلى ١٢٠سم. وبعد الوصول بالبناء إلى مستوى متر واحد تقريبا يبدأ تشكيل الأرفف من الداخل، وهي أرفف غائرة في الحوائط بعمق ٤٠سم - ٦٠سم يتم إحاطتها ببراويز وتسقيفها بعقود مدببة بسيطة أحياناً ومركبة في بعض الأحيان، وتعطي تشكيلاً جميلاً للتصميم الداخلي في المنازل. وتعرض التحف والأواني الصينية بها كمظهر من مظاهر الزينة التي تعتني بها ربة المنزل. وعند الوصول إلى مستوى الأعتاب يتم تسقيفها، إما بواسطة العقود المدببة البسيطة، أو المركبة، أو بواسطة جذوع أشجار الدوم أو بالاثنين معا. ثم يستمر البناء حتى مستوى السقف، وعادة لا يقل مستوى السقف عن ٤,٥م ليُعطي إمكانية تهوية جيدة تلائم الأجواء الحارة الرطبة.

تبدأ بعد ذلك عملية التسقيف وتتم بواسطة جسور من جذوع الدوم ترص في الاتجاه القصير على مسافات لا تتجاوز ٥٠ سم، ثم تُفرش فوقها في الاتجاه المتعامد طبقة من أعواد المض تُغطي كامل السقف ولا تسمح بوجود أي فراغات. وقد يتم التسقيف أحياناً على شكل قباب كما هو الحال عادة في المساجد، ويتم ذلك بواسطة عمل دعامات كبيرة متقاربة نسبياً تشكل أقواساً مدببة ثم يتم تحويل المسقط المربع إلى مسقط دائري للقبة بطريقة المثلثات الكروية المعروفة في العمارة الإسلامية وعليها يتم إكمال القبة نصف الكروية. ويستمر بناء الحائط لتثبيت جسور الدوم أو (السرو) وتكوين دروة للسطح بارتفاع ٥٠سم ثم يعمل كورنيش بارز في أعلى السقف. وتُفرش طبقة من الجص على طبقة أعواد المض بسمك متوسط ١٥سم، ويتم تسوية سطحه مع عمل الانحدار اللازم لتصريف مياه الأمطار. ثم تكسى الحوائط بالجص على أن تكون الطبقة الأمامية سميكة وتعمل على مراحل حيث يتم نقشها نقوشاً هندسية غائرة قبل اكتمال صبها، وذلك بواسطة فنانين مهرة حولوا هذه الحوائط إلى لوحات فنية رائعة.

وتتنوع عناصر هذه النقوش الفنية الغائرة من عناصر هندسية تتخذ المثلث والمربع وحدة لها، أو من عناصر نباتية على شكل أوراق الأشجار، أو الأزهار التي يتم تنظيمها بعد تقسيم الواجهة إلى عدة قطاعات طولية قد تأخذ عناصر النقوش نفسها وقد تختلف، وعادة ما يأخذ القطاع الأوسط أجمل هذه النقوش

وأدقها حول قوس دائري مركب من فصوص ذات نسب متناسقة.

بعد ذلك تثبت الأبواب والشبابيك المصنوعة من الخشب الأحمر المقاوم للحشرات القارضة بعد حفر نقوش جمالية عليها وإحاطتها ببراويز تعطيها طابعاً مميزاً منسجماً مع نقوش الحوائط الجصية. وتدهن الحوائط الداخلية والأسقف والفراغات بين جسور السرو بالنورة، وقد تنقش أحياناً بالدهان (البوية).

أما مكونات المنازل الطينية المكسوة بالجص فهي المجلس والصفة والباكيه والمطبخ والحمام والفناء الداخلي.

المجلس: هو الحجرة الرئيسية بالمنزل، ومتوسط مساحتها ٤م×٦م٢، وهي الحجرة الخاصة، ويتم حفر أجمل النقوش على الواجهة الأمامية، كما تزين أرففها بأواني الصيني، وبها صناديق خشب ذات نقوش محفورة، توضع بها المقتنيات الثمينة والمجوهرات والعطور، كما يستخدم المجلس مكاناً لاستقبال الضيوف. وللمجلس بابان، أحدهما أمامي، والآخر جانبي، وعادة ما يكون الباب الجانبي ذا اتجاه غربي. وتوجد مصطبة أمام كل باب بنفس النظام الموجود في العشة، تستخدم للمعيشة والنوم أثناء الليل.

الصفة: حجرة أصغر من المجلس، متوسط مساحتها ٣,٥م×٤م٢ ويتم عمل نقوش على واجهتها، وتستخدم للمعيشة ولمزاولة الأعمال المنزلية المختلفة، وعادة ما يعمل أمامها سقيفة لتوفير فراغ نصف مكشوف يشبه السهوة.

البايكة: هي حجرة يفتح أحد جوانبها على المدخل، يستخدمها رب المنزل لاستقبال الناس أثناء مزاولته أعماله، وتعمل بها دكة للجلوس، وعادة ما يجتمع فيها مع أصدقائه لتبادل الأحاديث.

المطبخ: بالإضافة إلى حجرة المطبخ ثمة ملحق مكشوف لعمل دكة التنور (الميفا) والملحة.

الحمام: وينقسم إلى قسمين، هما المرحاض، ويسقف أعلاه بقبة صغيرة، والمغسل وهو القسم المخصص للغسل، ويسقف عادة بقبو.

الفناء الداخلي: يستخدم الفناء الداخلي أيضاً للمعيشة والنوم في الظلال عصراً وأثناء الليل. ويبنى من الطوب، وتكون نهايته العلوية على شكل جملون، وقد تعمل بها بعض الشرفات الجمالية، وللفناء بوابة كبيرة يرتفع بناؤها على شكل مستطيل به قوس مدبب، وقد تزين بالنقوش،

وهنـاك بوابة ثـانوية أخـرى لدخول النساء.

وقد يشـتمل الفنـاء الداخلي علـى بعض الأشجار كالـرديمة (شجرة الفل) أو الحناية (شجرة الحناء) وهي أيضاً عنصر مهمٌ في المنزل لكثرة استخدامها في تزيين كفوف النساء.

مباني القش. تتنوع المباني النباتية في هذه المنطقـة، فهناك العشّة والخدروشة والعريشة والصبل والسهـوة والسجف، وكلهـا موجودة منـتشرة، ولهـم طرق خاصة في بنائها تناسب استخدامها.

العشه: هي الشكل السائد للـبيوت التقليديـة في تهامة، إضافة إلى وجود بعض المبـاني التي أدخلت إلى المـنطقة إبان الحكم العثمـاني وحكم الأدارسة، إذ يوجد عـدد قليل من المسـاكن بناها الأتراك، ويلاحظ عليـها لمسات الطابع التركي، إضافة إلى آثار البيوت التي بناها الأدارسة القادمون من المغرب الـعربي، ويظهر عليها طابع شمال أفريقيا.

كان مسـكن العشـاش هو المسكن الشعبي المنـتشر في سهل تهامة. وهذا النوع مـن البناء يلائم الـظروف البيئيـة القاسية من حرارة مرتفعة ونسبة رطوبة عاليه معظم أيام السنة، سواء فيما يتعلق بالمـواد الداخـلة فـي الإنشاء أو طـرق التصميم والتوجيـه لهذه المباني، وذلك لأسباب منها أن المواد المستخدمة في بناء العشـة وكذلك الطـبقات الداخـلة في تركيب حوائطها وسقفها كلها مواد جيدة العزل ضعيفة التوصيل للحرارة، وبذلك أمكن التـغلب على دخول الحرارة إلى داخل العشة عن طريق ضعف التوصيل. كما أن الشكل الهرمي المحدب للسقف يعطي فرصة دائمة لـتكوين ظلال على الجهة المعاكسة لاتجـاه الشمس، بعكس الأسقـف المسطـحة التـي تكون دائمـاً معرضة بالكامل لأشعة الشمس. يضاف إلى ذلك الارتفاع العالي لسقف العشـة الذي يصل إلى ٨م ممّا يمنع وصول الحرارة الناتجة عن الإشعاع من السقف إلى ساكن العشة.

وهناك سبـب آخر هو مراعاة اتجاه الرياح في تحـديد الفتحات، إذ توضع فتحة في الاتجاه الغربي الذي يعد المصدر الرئيسي لهبوب الرياح معظم أيام السنة مع وجود فتـحة أخرى متعامدة عـليها تسمح بمرور تيار هوائي داخل العشة ليوفر إمكانية جيدة لتجديد هواء العشة وتقليل نسبة الرطوبة، ولنفس السبب أيضاً ألغيت حوائط السهوة والصبل. وكانوا يلجأون إلى بناء كل عنصر بصورة منفصلة، إذ لا يوجد البناء المركب الذي يتكون مـن

عدة عناصر، وذلك لسهولة التحكم في التوجيه والتهوية لكل عنصر بنفس المقدار. بالإضافة إلى الاعتماد الكبير على استخدام الفراغات المفتوحة للمعيشة والنوم في الهواء الطلق أثناء الليل وأثناء تكوُّن الظلال، خاصة بعد العصر، إذ تكون هي المكان الأنسب في مثل هذه الظروف المناخية.

وتنتشر المباني التقليدية بأنماطها المختلفة في قرى سهل تهامة، مع أن بيوت العشش هي النمط السائد في المنطقة. ويرى البعض أن هذا النمط يرجع إلى أصل أفريقي (شرقي أفريقيا) وأن الأسلوب الذي اتبع في تشييده هو الأسلوب نفسه المتبع في تلك الجهات الأفريقية بسبب القرب المكاني. ولا شك أن هذا النمط من المساكن أدخلت عليه تعديلات كثيرة بسبب اختلاف المناخ والمكان (عريشي ١٤٠٩: ٣٨).

وتضم معظم المنازل عشة أو أكثر، وتعد العنصر الأساسي للمنزل، ويقاس حجم المسكن بكبر حجم العِشاش وعددها. وتأخذ العشة أشكالاً مختلفة. ففي منطقة القنفذة تكون العشة بسيطة ذات قاعدة مربعة ومسقوفة بقبة، بينما يزيد الاهتمام بتجميل العشة من الخارج والداخل كلما اتجهنا جنوباً. وفي منطقة جازان تأخذ العشة شكلاً مخروطياً ذا نسب متناسقة على قاعدة مدورة، كما تزين العشة من الداخل بالألوان والنقوش الجميلة. وتمتاز العشة عن المباني النباتية الأخرى بالنسب الرشيقة والنقوش الظاهرة والشكل المخروطي. وفي داخل الغرفة توجد شرفات وأرفف ونقوش رتبت على أسطح ملساء ذات ألوان جذابة ومزينة بأطباق وأوان منزلية ذات ألوان زاهية، تصدر نغمات لطيفة عندما تحركها نسمات الهواء فتتلامس. ولعل هذه المميزات تنفرد بها العشة في تهامة، خصوصاً منطقة جازان، مقارنة بالعشش في تهامة اليمن أو سواحل الدول الأفريقية.

تستخدم العشة لعدة أغراض، فهي مكان للمعيشة نهاراً، والنوم ليلاً أثناء بعض ليالي الشتاء، ولحفظ أدوات الطعام. كما أن العشة مجهزة لإعداد الشاي والقهوة، وتعد المكان الأساسي لاستقبال الضيوف، ولذلك نجدها مزينة من الداخل بأجمل النقوش والألوان وتعلق على جدرانها الأواني المنزلية. ولها بابان، والحركة بين بابي العشة تقسم فراغها الداخلي إلى جزءين، أحدهما كبير ويسمى الصدر ويتسع لعدد من الأسِرَّة (القعائد، جمع قعادة) تتراوح

بين الأربعة والسبعة، والآخر يسمى الربع ويتسع لسرير واحد (الحريـري ١٤١٠: ٤٩-٥٣).

وتعد المنـطقة الموجودة خارج بابـي العشة جزءاً لا يتجزأ من العشة. وينقسم هذا الفراغ إلى قسمين أحدهما أمام الباب الغربي، ويسمى العقاب، والآخر أمام الباب الثـاني، ويسمى الطرحـة، وكل منهما مصطبة مستطيلة ترتفع عن الأرض بمقدار ٢٠ إلى ٣٠سم وتمتد مسافة ٤-٧م. وتبلـط المصطبـة بالطين المخلـوط بروث الأبقار بعـناية شديدة، والعقاب محاط بـسياج ساتـر (سجف) لتـوفير الخصوصية، ويمتاز العقاب بموقعه مواجهاً النسيم البحري وتـظلله العشة صباحاً. لذا فهو عادة يستخدم لنوم الوالدين، أما الطرحة فهي المكان المستخدم عصراً ومساءً لنوم باقي أفراد الأسرة، وتستخدم الأسِرَّة الموجودة فـي العشة لـلنوم ليلاً خـارج العشة، وفي الصباح الباكر تقوم النساء بإعادتها وترتيبها داخل العشة.

الخدروشه: هي عشة صغيرة، تأخذ شكلاً مخروطياً وتقوم بدور العشة لدى الطبـقات الفقيرة والمـتوسطة، أما عنـد الطبقات الغنية فتستعمل للأغراض غير المهمة كمستودع أو مطبخ، والخدروشة صغيرة مقارنة بالعشة، فهي لا تتسع إلا

العشة (الخدروشة)

لأربع قعائد (أسِرَّة)، ومسقطها لا يزيد قطره غالباً عن ٣,٥م، كما أنها لا تبنى بنفس القدر من الدقة والعناية كالعشة، وتترك أحياناً بدون لياسة داخلية.

العريش: بناء ذو مـسقط مستطيل يبنى من المواد التـي تبنى منها العشة، ويغطى بسقف جملوني الشكل (مائـل من جهتين). ويستعـمل العريش غالباً من قبـل الرجال مكانـاً للاستقـبال أو الاجتماع. ولا يبنى العريش بالقدر نفسه من العناية التي تبنى بها العشة، كما لا يزخرف من الداخل بالدرجة نفسها من التفاصيـل والاهتمام. وللعريش قدرة أكبر على تصريـف مياه الأمطار، كما أنه يمتاز عن العشة بمسقطه المستطيل الذي يمكن إطـالة ضلعيـه الطويلين حـسب

العريش

الحاجة دون مشاكلات إنشائية، بعكس العشة التي يصعب تعديلها بعد بنائها. ويوجد للعريش بابان، أحدهما في منتصف أحد الضلعين الطويلين، والآخر في منتصف أحد الضلعين القصيرين، ويراعى أن يكون أحد البابين مواجهاً للغرب للتهوية، كما أن للعريش أحياناً نوافذ صغيرة.

الصبل: كوخ مخروطي الشكل، أبسط من العشة، ويستعمل عادة حظيرة للماشية، ويمتاز بشكله المخروطي الذي يساعد على تصريف مياه الأمطار. يبنى الصبل بطريقة مشابهة للعشة ولكن بشكل مبسط. ولكي يمر الهواء بسهولة من خلال الأعواد الخشبية، لا يكسى الجزء السفلي بالحشائش.

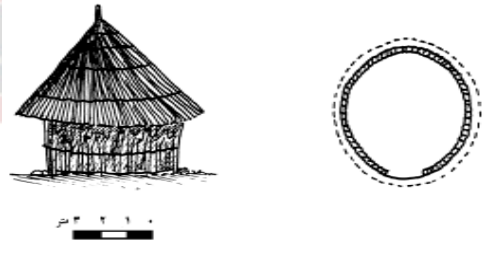

الصبل

السَّهْوَه: هي سقيفة من عدد من الأخشاب المتينة على شكل أعمدة، وتستعمل عادة سيقان شجرة القفل، ثم تمد أعتاب أفقية من أخشاب الأثل والأراك وتفرش بعد ذلك طبقة من أعواد المض المرنة وتكسى بالثمام، ثم يتم ربط جميع عناصر المبنى الإنشائية بحبال سعف الميبار المجدولة، كما يتم تثبيت الحشائش بواسطة شبكة من هذه الحبال وحبال من سعف الحلفا، وتكسى الجوانب بالطريقة نفسها عدا طبقة أعواد المض، وقد تستخدم حشائش المرخ بدلاً من الثمام. وتشبه السَّهوة التهامية السّهوة في السراة، إلاّ أن الأخيرة لا تُغطى جوانبها، وتُستخدم في مراقبة محاصيل الذرة ذات القصب العالي بهدف حمايتها من

السهوة

الطيور، لأنها تُبنى بجانب الحقل، وقد تستخدم للنوم أحياناً.

ويترك الجزء الأكبر من الجوانب مفتوحاً حتى يسمح بأكبر قدر من التهوية، ويجب التنويه هنا بأن عنصر التهوية يؤدي دوراً مهماً جداً في جميع الأفكار التصميمية، وذلك للتغلب على نسبة الرطوبة العالية في الأجواء التهامية الحارة.

وتستعمل السهوة عادة في معظم المنازل مكاناً للمعيشة اليومية والالتجاء إليها وقت القيلولة للتعرض لنسمات الهواء البسيطة مهما كان اتجاهها. كما تستعمل أيضاً حظيرة للمواشي، وتكون أحياناً في الأسواق المؤقتة وبعض المساجد الصغيرة. ونظراً لأن شكل السهوة لا يمنع تسرب مياه الأمطار إليها فقد تركت في معظم الأحيان من غير لياسة داخلية، واقتصر استعمالها على الأغراض غير المهمة.

السجف: يطلق اسم السجف على السياج المبني من الأخشاب والأعواد المكسوة ببعض أنواع الحشائش المربوطة بالحبال، ويبنى السجف بطريقة مشابهة للجزء السفلي من العشة. ويكسى الوجه

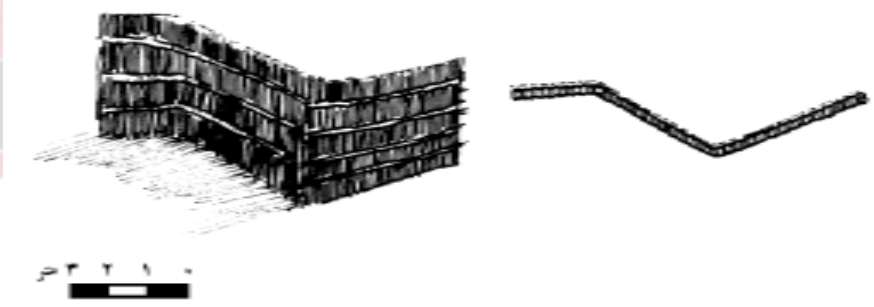

السجف

الداخلي منه بالحشائش بطريقة منتظمة حتى يأخذ مظهراً جميلاً، بينما يترك الوجه الخارجي المواجه للشارع بلا تكسية فتظهر منه الأخشاب والأعواد الإنشائية. ويستعمل السجف سوراً خارجياً للمنزل، كما يستعمل لفصل العناصر الخاصة بالعائلة داخل المنزل لتأمين الخصوصية اللازمة.

مكونات البيوت القشية. اخترنا أحد المنازل من منطقة تهامة نموذجاً يوضح طريقة توزيع فراغات المساكن ومكونات البيت التقليدي في تهامة. وهذا المنزل مكون من ثلاثة أنواع من المباني النباتية السابق استعراضها، هي العشة والسهوة والسجف، كما يحتوي على عناصر أخرى، مثل المطبخ، والحمام، وحظيرة المواشي، وموضع نشر الحبوب، وموضع زراعة بعض الأشجار، والداعر.

أما المطبخ، ويسمى البناية فهو بناء صغير طوله من ١,٥م إلى ٢م وعرضه يقترب من طوله، وارتفاعه بين ١,٥م إلى ٢م. تغطى حوائطه بالطين لمقاومة الحرائق، وقد يسقف أو يترك مكشوفاً. وبالمطبخ الدكة التي تحتوي على الميفا، وهو وعاء فخاري يعمل فيه الخبز، والتنور وهو وعاء برميلي من الفخار يستخدم لحنذ اللحوم، وقد يكون بالمطبخ أكثر من تنور، حسب الوضع الاجتماعي لصاحب المنزل، والملحة وهي الموضع المخصص لعمل نوع من خبز الذرة، يسمى اللحوح، وتختص به منطقة جازان دون غيرها من سهول تهامة.

ويوضع المرحاض غالباً في الجزء الشمالي الشرقي من الدار لحماية المسكن من رائحته، ويحاط بسياج (سجف) ويغطى بسقيفة. والجزء المعد للاستحمام يسمى الدارة، أما المرحاض فيسمى الزولي وهو حفرة تغطى بالأعواد والجص وتترك بها فتحة (الحريري ١٤١٠: ٤٩-٥٣).

أما الزاوية فهي حظيرة المواشي وتأخذ عادة الموقع القريب من مدخل الدار، وهي غالباً من جزءين أحدهما للبقر والآخر للحمير. ويكون جزء من الحظيرة مغطى والآخر مكشوفاً، وتحاط بسور يسمى الزرب ويبنى من فروع الأشجار والحشائش. كما أن هناك حظيرة أخرى مخصصة للأغنام تسمى سهوة الغنم وتكون عادة بالقرب من الزاوية.

وفي موضع نشر الحبوب تُعَرَّض الحبوب للشمس وللهواء لتجفيفها، وبجوار هذا الموضع يمكن للمرأة أن تقوم بطحن الحبوب. ويخصص مكان في الدار لزراعة الأشجار ذات الرائحة

الزكية، ومن أهمها شجرة الفل التي قد لا يخلو منها منزل، إضافة إلى الريحان والشيح والحناء والياسمين. وتزرع هذه الأشجار غالباً في الجهة البحرية (الغربية) من الدار ليحمل نسيم البحر معه الروائح إلى أماكن الجلوس. وفي ظلال شجرة الفل أو الحناء تنصب الجرار وهي أوعية الماء الفخارية ليتبخر منها ماء الرشح ويوفر البرودة المطلوبة للماء.

أما الداعر فهو سور مليس بالطين المخلوط بروث البقر، يبنى بالقرب من مدخل العشة الرئيسي ويمتد عادة خلف العشش ليجعل المدخل الرئيسي (القبل) معزولاً عن بقية عناصر الدار باستثناء حظيرة المواشي وسهوة الغنم، وهو يؤمن الخصوصية للنساء. كما يحاط المنزل بالسجف أو بحاجز ترابي يغطى بشوك شجر السلم ويسمى الزبير لحماية المنزل وتوفير الخصوصية. ويحتوي السور على مدخل رئيسي يسمى كابة، ومدخل جانبي يسمى المدرج يؤدي إلى الجيران تستخدمه النساء أثناء ذهابهن إلى الجيران.

ويشكل الحوش الجزء الأكبر من مساحة المنزل؛ إذ إن العناصر المبنية المغطاة قليلة ومنفصلة عن بعضها لتوفير التهوية الجيدة لها. وفي الحوش يحدث معظم نشاط أهل المنزل، فهو يستخدم للحركة

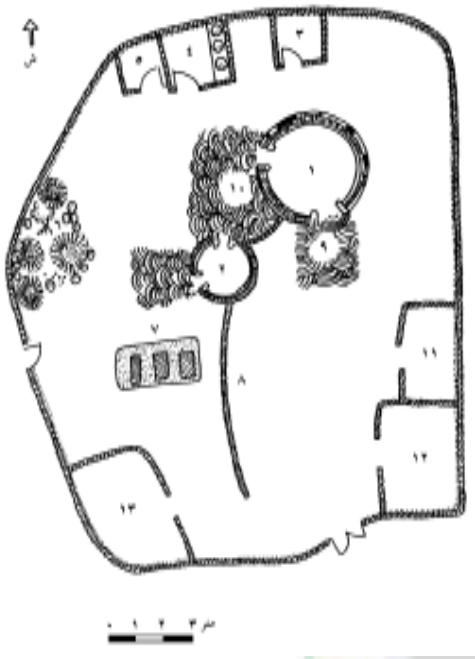

نموذج لتصميم منزل بمنطقة تهامة

والنوم والجلوس طوال اليوم، عدا أوقات القيلولة عندما تشتد حرارة الشمس، كما يستخدم للعب الأطفال.

طرق بناء العشه. ارتبطت مواد البناء المستعملة في إنشاء عناصر المنزل بالبيئة المحلية سواء من الأرض أو الأشجار والنباتات البرية. وسنستعرض خطوات إنشاء العشة بصفتها أهم عنصر في المنزل والعمارة التقليدية بتهامة، وبناء العشة يحتاج إلى بنائين محترفين لإجادة تفاصيلها الإنشائية، ويتكون فريق العمل من شخصين إلى ثلاثة أشخاص، وعلى صاحب العشة بمساعدة البنائين اختيار

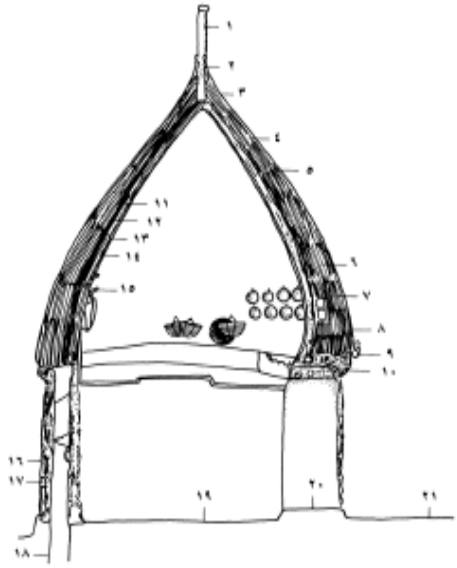

قطاع تفصيلي يوضح إنشاء وعناصر العشة

موقع العشة بحيث يكون مرتفعاً نسبياً عن سطح الأرض المحيطة لتجنيب العشة أخطار تجمع مياه الأمطار، كما يتم الاتفاق على مساحة العشة والمقياس المتعارف عليه في ذلك يحدد بعدد القعد (الأسِرَّة) التي تتسع لها العشة، فيقول: أريد عشة أم أربعة قعد أو خمسة، وأقصى حد ثمانية أسرة، وبناء على ذلك يقوم البناء المتخصص بتحديد المواد المطلوبة ليتم تأمينها من قبل صاحب العشة، ومن ثم يبدأ فريق العمل بإنشاء العشة.

يبدأ البناء بتحديد مركز العشة ومن ثم محيطها بواسطة تثبيت وتد في المركز، ثم يربط به حبل في نهايته قطعة صغيرة من الخشب مدببة من أسفل يرسم بها المحيط على الأرض، ثم يتم تحديد بابي العشة بحيث يكون أحدهما ذا اتجاه غربي والآخر في اتجاه متعامد عليه (شمالي أو جنوبي).

ثم تبدأ عملية حفر الأساس على مدار العشة بعمق لا يقل عن ٥٠سم أو كما يقال في تعبير البنائين «ركبة»، وقد يصل إلى ٨٠سم، ومن ثم يثبّت الأساس من أخشاب صلبة تمتاز بقوة التحمل مثل خشب السلم والسدر والأثل على طول المحيط، وترص متلاصقة بأقل ما يمكن من فراغات بينها، ويدفن الجزء السفلي منها في حفرة الأساس ويبقى الجزء العلوي منها بارتفاع نحو ٢,٨سم.

ويعمل البناء على سد الفراغات المتكونة بين أخشاب الأساس وربطها بالحرجة، وهي مجموعة من الفروع النباتية الموثقة بالحبال في شكل حزم طويلة تتكون من أعواد المض المرنة، وتثبت الحرجة في وضع أفقي متعامد على خشب الأساس باستخدام أربطة من الحبال الرفيعة تسمى الشبطان. والبناء في هذه المرحلة وما بعدها يشبه صناعة السلال، فهو في واقع الأمر عبارة عن ربط ونسج وتشبيك باستخدام الحبال والفروع النباتية حتى قمة العشة.

بعد ذلك تعمل سقالة وذلك بتثبيت قائم في مركز العشة وتسمى عتبة العشة أو السارية، وترتفع العتبة ارتفاعاً مناسباً لارتفاع العشة وفي أعلاها يصنع مسطح من الخشب للوقوف عليه ويعرف باسم السهوة، وتعمل السقالة للاستعانة بها في بناء الجزء العلوي من العشة الذي يعرف بالقرو كما يستخدمها النساء أثناء تشطيب العشة من الداخل. بعد الانتهاء من عمل الحرجة يتم تركيب الضلوع وهي عبارة عن حزمة من أعواد المض المحزومة بحبال الشبط بسمك أربعة أعواد متراكبة لعمل سارية طويلة مرنة يصل طولها إلى ١٥م تبدأ من أسفل العشة وتثبت في الأساس ثم تقوس لتنتهي في أعلى نقطة في العشة، ويثبت كل ضلعين متقابلين مع بعضهما، ولضمان اتزان الشكل العام للعشة تُركَّب أربعة أضلاع في البداية وتقاس المسافات بينها بدقة ثم بعد ذلك تقسم المسافات إلى أجزاء أصغر لتركيب باقي الضلوع التي يصل عددها إلى نحو عشرين ضلعاً. وبالانتهاء من تثبيت الضلوع تتضح معالم الشكل الخارجي للعشة سواء كان قبابياً أم مخروطياً. ثم يستكمل تركيب الحرايج للجزء العلوي من العشة من الخارج ومن الداخل وتملأ الفراغات بين الضلوع

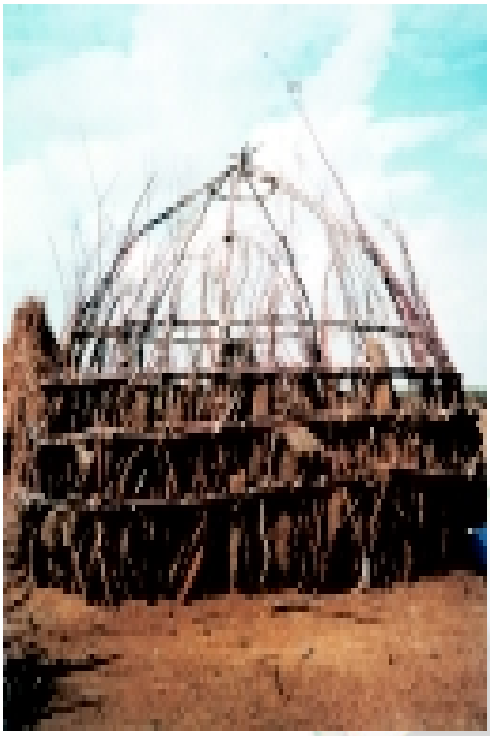

تركيب ضلوع العشة في تهامة

والحرائج بأعواد شجر الصنوبر ويثبت بالطفي أو الأدوال.

وبعد اكتمال إقامة الضلوع والحرجات تثبت القُرْعَيـنْة وهي الخشبة العليا التي تظهر فوق قمة العشة ويتم تثبيتها عند التقاء الضلوع بواسطة ربطها بمجموعة من الأعواد القصيرة عند قاعدتها وتحكم باستعمال زنبيل من الخوص منكس لينفذ من خلال قاعدته طرف القرعينة العلوي ويعرف هذا الزنبيل بالعجرة، ومهمة القرعينة حفظ الحبال التي تسدل على المسكن.

وبعد الانتهاء من بناء الأساس يراعى عمل الأرفف داخل العشة، وعادة يعمل رفان رئيسيان فوق كل باب ورفان آخران في الثلث الكبير من العشة وتتم العملية باستخدام أعواد المض بعد تثبيتها في هيكل العشة بحبال الشبط، كما يتم تثبيت بعض الأوتاد على جدار العشة لاستخدامها للتعليق.

بعد الفراغ من بناء الهيكل الأساسي للعشة تبدأ مرحلة تكسية العشة من الخارج بالحشائش وهي على ثلاث مراحل؛ أولاها مرحلة الوزرة، وهي تكسية الأساس وهو الجزء القائم عمودياً حتى عتبات الأبواب، وتتم بعمل طبقة من حشائش الثمام ويربط الثمام بحبال الشبط وتغطى هذه الطبقة بحشيش آخر يسمى المرخ، ثم تربط حشائش المرخ بالحبال المزدوجة وتلف هذه الحبال باتجاه أفقي حول خشب الأساس من الداخل وتكوّن قطاعات رأسية جميلة تسمى الحزرة. يلي ذلك مرحلة البريم، وهو تغطية وسط العشة بحشائش الثمام ويتم تثبيتها بمجموعة من الحبال بإحكام. أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الغشو وتشمل تغطية الجزء العلوي من سطح العشة، من نهاية منطقة البريم وحتى قمة العشة وذلك باستخدام حشائش الثمام، وتحكم الحشائش بطبقة سميكة لحفظ العشة وحمايتها من تسرب مياه الأمطار، ومن ثم الغشو بالمتت. وتتم هذه العملية

مرحلة البريم في العشة

بمجموعة من الحبال القوية والسميكة نسبياً وهي مصنوعة من نبات المرخ أو الحلفاء ذات اللون الأصفر، وهذا الغشو يعطي العشة مظهراً جميلاً حيث تتدلى الحبال بشكل صفوف طويلة بعد لفها حول القرعينة ثم مدها حتى أسفل عتبة الأبواب. وعملية الغشو بالمتت عملية شاقة وتحتاج إلى دقة وقوة بدنية وذلك لأهميتها في المحافظة على بقاء وتماسك العشة من الخارج خصوصاً عندما تهب الرياح، كما تعمل على شد البريم والغشو وتنساب عليها مياه الأمطار فلا تتخلل جدران العشة. وبذلك يكون قد اكتمل الهيكل الإنشائي للعشة وينتهي دور الرجال.

يبدأ بعد ذلك دور النساء في مرحلة التشطيب والتصميم الداخلي للعشة، وهذه العملية تعد من مسؤولية المرأة حيث يشارك فيها نساء المنزل والجيران والاستعانة في بعض الأحيان بنساء محترفات، ويتم التشطيب وفقاً لعدة عمليات.

تبدأ عملية الحشو، وهي عملية ملء الفراغات بين أخشاب الأساسات باستعمال حزم من حشائش المرخ أو القصب. ثم عملية الربدة (الطلاسة)، وهي عملية تكسية العشة من الداخل باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أو التبن، وتعاد هذه العملية لعدة مرات لتغطية أخشاب العشة من الداخل ووصل أجزاء جدرانها بعضها ببعض. وتأتي مرحلة الردعه، وهي خطوة تالية لعملية الطلاسة الأولى وتُعمل أيضاً بالطين المخلوط بالروث ويختلف اسم هذه العملية من منطقة إلى أخرى؛ فقد تسمى ربدة ثانية أو رقعة ثانية، وفي هذه العملية يكون معجون الطين عليه نسبة أكثر من روث الأبقار ليكون أكثر ليونة من المرحلة السابقة. ثم تأتي مرحلة الملسه وفيها يتم تنعيم جدران العشة بصورة دقيقة باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أيضاً، وبهذه العملية يكون قد اكتمل ملء جميع الفراغات وأصبحت الجدران ناعمة ومستوية تماماً. ويعقب ذلك عملية التبييض التي تختلف من منطقة إلى أخرى، فالبعض يستخدم الطين الأبيض البري (الصلصال) بينما الشائع هو

استخدام النورة، وهي عجينة من مادة الجبس تخلط ثم تحرك تحريكاً شديداً حتى تفقد خاصية التصلب السريع ويضاف إليها النيلة لإعطائها لوناً أزرق ثم يدهن بها السطح الداخلي للعشة والأرفف والبروزات الزخرفية. وأخيراً تأتي عملية الألوان وتزيين وزخرفة الجدران بالألوان والأصباغ الملونة إلى جانب الصبغات النباتية التي يستخلص بعضها من أوراق البرسيم الخضراء، وتقوم النساء بهذه العملية التي تظهر العشة بألوان وتصميمات بديعة الجمال.

الزخرفة. إن استعمال العناصر الزخرفية يرتبط بالوضع الاقتصادي والاجتماعي لمستعمليه وتختلف المواد المستعملة، في الزخرفة حسب البيئة المحلية. وفي تهامة يشتهر النساء بتزيين وزخرفة الجدران الداخلية للعشة بالدهانات والأصباغ، ويمكن تصنيف هذه الزخارف إلى زخارف تمثيلية وهندسية وكتابية. أما الزخارف التمثيلية فيظهر فيها رسم العناصر الحية على الجدران كالأسماك والديكة والحمام والعصافير والجمال والغزلان والقطط وغيرها من العناصر الحية التي يشاهدها الإنسان في تهامة. ويظهر في زخرفة الجدران أيضاً رسم العناصر النباتية كالنخيل وبعض الأشجار والزهور، كما تتنوع الزخارف في رسم عناصر الجماد كالطائرات والسيارات والسيوف. وتظهر حوائط العشة من الداخل تنوع الزخارف الهندسية وقد أبدعت النساء في إبرازها بأشكال وألوان مختلفة، وقد ساعد على إبراز جمالها شكل العشة المخروطي، وقد تم رصد العديد من الأشكال الهندسية، كالخطوط المستقيمة المتوازية (الرفيعة والسميكة) والخطوط المستقيمة ذات الأهداب، والخطوط المموجة، وأشكال المثلثات والمربعات والدوائر المتداخلة التي تظهر في أعلى العشة (القرو). أما الزخارف الكتابية فقد رافقت عملية الرسم بالألوان الكثير من الكتابات الملونة التي استخدمت كعناصر زخرفية، وهذه الكتابات كانت مختلفة العبارات فمنها البسملة، والاستعاذة، وبعض الآيات القرآنية، وتاريخ بناء العشة، وبعض

زخرفة أعلى العشة

الأمثال الشعبية. إضافة إلى استعمال الأطباق والأواني المنزلية والسجادات المصنوعة محلياً من السعف والمزخرفة بالأشكال والألوان الجميلة كأسلوب في تجميل جدران العشة.

إضافة إلى الزخارف الجدارية تزخرف أرضية الفراغ المفتوح خارج العشة (الطراحة، العقاب) وتعمل هذه الزخرفة بأيدي النساء وذلك بتبليط الأرضيات بالطين المخلوط بروث الأبقار، وتتم عملية الزخرفة براحة اليد عندما يكون البلاط ليناً وتظهر الزخرفة بأشكال الأقواس المتداخلة مع بعضها.

كما ساد استخدام القرعينة التي تمثل الخشبة العليا التي تظهر فوق قمة العشة، ومن الطريف أن تكون القرعينة وسيلة للإخبار عن شيء ما، فإذا علق عليها، مثلاً، قطعة من القماش الأبيض فإن ذلك يدل على أن أهل العشة رزقوا مولوداً.

عشة مسكونة في جازان وتبدو القرعينة

مراحل بناء البيوت. هناك أربع مراحل رئيسية لبناء المنزل التقليدي في تهامة؛ هي مرحلة التفاوض والاتفاق بين المالك والبنّاء ومرحلة تحضير مواد البناء ثم مرحلة البناء وأخيراً الاحتفال باكتمال البناء.

عند الرغبة في البناء بقرى تهامة زهران يبحث المالك عن بنّاء سواء بطريقة المعرفة المباشرة، أو عن طريق السؤال في القرى المجاورة؛ ويتم الاتفاق بين الطرفين على موقع البناء حسب التفاصيل التي تفرضها طبيعة الأرض، ارتفاعاً وانخفاضاً، وحجم الهيكل الخارجي للمنزل، ويتم في ضوء ذلك تحديد الأجور، ومدة إنجاز العمل. والقيمة التي يتفق عليها سابقاً تدفع نقداً للبنّاء، وللصبية بالأجر اليومي، أو عن طريق اتفاق عيني يرتبط موعد حلوله أثناء عملية الحصاد. ثم يتفاوض المالك مع البناء فيما يخص توفير مواد البناء، وخاصة مادة الحجر، وتأمين نقلها ضمن القيمة النقدية للأجر اليومي، ويتعهد المالك للبنّاء وصبيانه بتوفير المأكل والمشرب خلال مراحل البناء، ويتم الاتفاق عادة بينهم لإنجاز العمل حسب القدرة المالية للمالك، ففي أحيان كثيرة يتم إنجاز البناء خلال أشهر معدودة، أو قد تطول المدة

إلى عام أو عامين. وعلى أي حال فإن استمرارية البناء تلزم المالك بالتفاوض مع طرف آخر لإتمام عملية البناء، وخاصة قبل حلول موعد التسقيف، وهو الحرفي المتخصص في النجارة، إذ يقوم المالك بالبحث في القرى المجاورة، وخاصة التي يشتهر النجارون بها بأسمائهم كالمكرمي، والثرباني، والحوالي، ويكون موعد التفاوض قبل مرحلة التسقيف للاستعداد لتأمين الأخشاب، إذ يحدد كمية الخشب ونوعها للأسقف، والأبواب، والنوافذ، والأقفال، والأعمدة، وبعد تأمين مستلزمات النجار من المواد يتكفل المالك بتوفير المأكل، والمشرب، والمأوى للنجار طيلة إقامته بالقرية.

أما فيما يخص أعمال الحدادة فلم يكن لها أي دور يذكر، وتتم عموماً جميع المفاوضات والاتفاقيات سابقة الذكر عن طريق المشافهة بين المالك والحرفيين دون عقود مكتوبة.

يأتي بعد ذلك مرحلة تجهيز مواد البناء. وتتطلب هذه المرحلة تحضير الأحجار ومادة الطين فيقوم البناء وصبيته بقطع الأحجار وتهذيبها ونقلها إلى موقع البناء (في حالة عدم وجود حرفي متخصص يعمل بمحجر القرية) سواء كانت بالنقل على ظهور الجمال أو بواسطة السواري الخشبية أو عن طريق الصبية وخاصة الأحجار الأقل وزناً.

كما تتطلب جلب وتجهيز مادة الطين التي تؤمَّن في العادة من المزارع والأودية، ويقوم بتأمين هذه المادة صاحب المنزل، وأفراد عائلته، إذ يتم جمعها بالقرب من موقع البناء، وتقوم النساء بعد ذلك بجلب المياه من مصادرها في قرب جلدية، وصبها على الطين لخلطه بواسطة الثيران لجعله ملائماً لمدّه على الأسقف الخشبية التي تعلوها صفائح حجرية رقيقة، وطبقة من أوراق النبات.

ويقوم صاحب المنزل أيضاً بتأمين الأخشاب من عدة مصادر، سواء عن طريق الشراء أو عن طريق المساعدة (ركيزة) من ملاك المزارع (البلاد)، أو من حمى القرية.

وتبدأ مرحلة البناء بانتقال البنَّاء وصبيته إلى موقع البناء، حيث يأخذ البناء (المعلم) في رسم مخطط المنزل على الأرض حسب رغبة المالك بالتفاصيل الداخلية للوحدات إضافة إلى الشكل الخارجي من ناحية الارتفاع والانخفاض؛ ويقوم البناء (المعلم) بالكشف عن أرضية الموقع المراد بناؤه، ففي حالة وجود أساس صخري طبيعي يتم البناء عليه مباشرة، أما في حالة كون أرضية الموقع هشة فيتم

الاتفاق مع المالك على حفر أساس يصل إلى نصف قامة الرجل يعرف بالمحزم أو الفقير. ويرافق حفر الفقير بعض الأهازيج من قبل المعلم وصبيته حيث يرددون أشعاراً تسمى غناء الفقير، كقولهم:

الله يرحم جدك ما بناها على الوعش

ربض فوق عروان من سمى بنا

وبعد أن تحفر الأساسات تثبت الأحجار الكبيرة داخل حفرة الأساس، وتبنى الحوائط الخارجية عليها مباشرة، وخاصة الواجهة الرئيسية للمنزل لتحديد المدخل (الجامع)، وبعد ذلك يتم بناء الحوائط الأخرى بشكل متتابع حتى يصل ارتفاع هذه الحوائط إلى مستوى نصف قامة الرجل وتسمى هذه المرحلة محلياً الأرباع. وبعد ذلك يحضر المالك إلى موقع المنزل، حيث يطلب من المعلم تقسيم الدور الأرضي بعينة، أو عينتين، أو شقة كاملة دون تقسيم، وهكذا. وعادة يمثل الطابق الأرضي في المنازل السكنية بالمنطقة أماكن لخزن الأعلاف، وإيواء الماشية، لذا لا تكثر التقسيمات بهذا الطابق.

يقوم البناء بعد مرحلة الأرباع ببناء القواطع الداخلية، وتثبيت دعامة السلم الداخلي المؤدي للطابق الأول، وفي الغالب تكون منازل المنطقة من طابق، أو طابقين؛ وتتحكم القدرة المادية للمالك في ارتفاع سقفها، فالميسورون من ملاك المزارع، وأصحاب قطعان الماشية تكون أسقف منازلهم عالية، أما من هم أقل ثراء فيكتفون بطول قامة الرجل، أو أطول قليلاً، وبعد هذا التحديد لطول السقف يشرع البناء في تثبيت السواري الخشبية استعداداً للتسقيف، وخلال هذه المرحلة يتم تثبيت عمود خشبي (مرزح) وسط نقطة تقاطع السواري الخشبية تعرف محلياً باسم الملقى، حيث يتم تثبيت العمود بثلاث خشبات تعرف باسم العصوه في قاعدة العمود الأرضي، ثم يثبت تاج العمود على السواري مباشرة، ويتم بعد ذلك رص الصفائح الحجرية لسد الفراغات بين السواري، إضافة إلى تثبيت السواري الخشبية على مستوى مثالي، وتتلاحق الطوابق العليا بالطريقة نفسها. أما نوافذ المنازل فهي في الغالب فتحات مثلثة صغيرة الحجم توضع في كل اتجاه من المنزل، وخاصة في الطابق الأول، وتوفر هذه النوافذ ميزتين؛ الأولى أمنية، حيث تستخدم لإطلاق النار في حالة الاعتداء، والثانية إيجاد تيار هوائي خلال فصل الصيف الحار الرطب، إضافة إلى سهولة إغلاقها بواسطة لفافة من القماش أثناء فصل الشتاء.

وتمثل المرحلة الأخيرة من إكمال العمل في المنزل فرحة كبيرة يشارك فيها البناء والنجار وصبيتهم، وأهل القرية ذكوراً وأناثاً بشكل نفير، ومع ذلك فإن هذه المرحلة لا تخرج الحرفيين من تخصصاتهم، فكل حرفي يقوم بعمله النهائي، فالنجار يكمل تركيب الباب الرئيسي للمنزل (الجامع) عن طريق ما يعرف محلياً باسم العبّر وعمل الضبة ووضع الدولبح. أما البناء وصبيته فيقومون بخلط الطين لسد الفراغات في الأسقف، بالإضافة إلى رصف الأسطح بالأحجار المصفحة للاستفادة منها على شكل مقاعد جلوس، وعمل بروزات حجرية من خارج المنزل تعرف باسم البروج.

أما عن دور الحداد في البناء، وما نشاهده اليوم من أعمال حدادة في بعض المنازل التقليدية، وخاصة النوافذ والأبواب فقد عرفت مؤخراً، بعد أن توافرت سهولة الاتصال مع المدن، وظهور الأبواب والنوافذ الحديدية التي تستورد من مكة أو جدة، أو القنفذة بمقاسات مختلفة وجاهزة للتركيب، وقد نتج عنه ظهور النوافذ والأبواب الكبيرة الحجم بعد أن كانت عبارة عن فتحات ضيقة في السابق.

أما عن أفراح أهالي القرية المصاحبة لإنهاء مراحل البناء، فتتمثل في عمل وليمة على نفقة صاحب المنزل، وبمساعدة من أهل القرية، عينية أو معنوية، وخاصة في أوساط النساء اللاتي يقمن بدور رئيسي في المراحل الأخيرة للبناء. كعمل اللياسة الداخلية، ونصب الموافي، وتطيين الأرضية، وفرش الحصر، وتنظيف المنزل من مخلفات البناء، وإعداد الوليمة، وتقديمها للحرفيين بوصفهم ضيوف القرية (العبودي ١٤١٠: ٥٧-٦٠).

البناؤون وطرق البناء في تهامة. في تهامة زهران (وقاعدتها الباحة) يعرف البناؤون بالمعلمين، ويقوم المعلم مع عدد من عماله وصبيانه الذين يطلق عليهم الحرفية أو المزورية والذين لهم أسماء معينة معروفة في معظم مناطق المملكة كالمثور والخلاط والمعدي والزقاف واللقاف والقراري، بأعمال البناء ولكن قد يشارك في البناء أفراد بأجر معلوم يتقاضونه يومياً أو أسبوعياً يتم تأمينهم من قبل المعلم، مثل صانعي اللّبن وقالعي الحجارة وجالبيها وقاطعي الأخشاب والنجارين، وهناك أفراد رجال ونساء يشاركون في عملية البناء من غير أجر كصاحب البيت وأفراد عائلته وبعض الأقارب والأصدقاء. وقد جرت العادة أن يهب

أهل القرية رجالاً ونساء وصبية لمشاركة باني البيت أو صاحبه بما يسمى النفير وذلك من قبيل النخوة والمروءة وتحقيقاً للتكافل الاجتماعي، وقد تتعدى المشاركة حدود الفزعه إلى التكفل بتوفير الطعام للعمال والأخشاب للتسقيف والعون المادي أيضاً.

والمعلمون شريحة اجتماعية ينتمون بأصولهم إلى قبيلتين عربيتين هما قبيلتا غامد وزهران، ولهم مكانة اجتماعية مميزة. ويتفق أهالي المنطقة على أن مهنة البناء، من ناحية تقاليد وأعراف القبيلة، مهنة شريفة شأنها شأن مهن التجارة، والرعي، والزراعة، ولذلك يحظى ممارسو مهنة البناء باحترام أفراد مجتمعهم وتقديرهم، فالبنّاء (معلم البناء) المنتمي لقبيلة زهران مثلاً هو عضو فعال في مجتمعه، له من الحقوق ما عليه من الواجبات، وهو ملتزم بجميع التقاليد والأعراف المتوارثة في هذه القبيلة، سواء فيما يتعلق بحقه بالمصاهرة من الأقارب أو من القبائل المجاورة، أو بحقه في مشاركة أهل القرية بمجالسهم، والمطالبة بعرافة القرية، وغير ذلك من مظاهر المسؤولية والنفوذ، كما عليه أن يكون كأحدهم في السرّاء والضرّاء، في الحرب والسلم، وفي الخدمات الاجتماعية والأعمال الخيرية. وهذا ما ينطبق على من يمتهن المهن الشريفة آنفة الذكر التي لا يأنف القبلي من ممارستها بمجتمع جنوب غرب المملكة، وخاصة في تهامة زهران.

وعن الوضع الاجتماعي والاقتصادي للبنائين في تهامة زهران يذكر العبودي أنهم لا يدخلون ضمن فئة الملاّك الأثرياء، وهذا راجع إلى أنهم لا يتوارثون هذه المهنة في الغالب، كما يتوارث الصناع مهنهم الحرفية، إذ يكاد يتفق بناؤو المنطقة على أن السبب الذي أدى إلى التحاقهم بمهنة البناء هو الحاجة الماسة إلى أسباب الرزق نتيجة الأوضاع الاقتصادية الرديئة التي واكبت فترة صباهم قبل خمسين عاماً تقريباً مما حدا بهم إلى اختيار هذه المهنة لاعتبارات قبلية نابعة من شرف العمل بهذه المهنة... ومعلمو البناء هم بناؤون متخصصون حرفيون تعلموا مهارة البناء من سابقيهم بهذه المهنة حيث يلتحقون من صغرهم بمهنة البناء، ويعرفون في هذه الحالة بالصبية أو الشُغّال، وتنحصر مهمتهم في بداية حياتهم بجلب الدمك (الحجر الصغير) بواسطة المنثل (الزنبيل) وحمل الأحجار من مقلع القرية إلى موقع البناء. ويستمر الصبي بهذه المهنة ما بين ٥ إلى ١٠ سنوات، وبعد هذه المرحلة ينتقل إلى

مرحلة أعلى من سابقتها تعرف محلياً باسم القراري، ولكنه يستمر بجلب الحجارة من المقلع، ولا يقل العمل في هذه الفترة عن ثلاث سنوات، ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى تعرف باسم الملقّف، وهذه هي المرحلة ما قبل الأخيرة التي تؤهله إلى الوصول إلى درجة معلم.

والوصول إلى درجة معلم لا تحددها الخبرة فقط، وإن طالت، وإنما يقررها مجتمع القرية الذي يتابع مراحل البناء والبنائين أنفسهم، يقول البناء جراد بن خميس: إن الوصول إلى هذه المرحلة يتطلب شيئاً رئيسياً وهو إتقان الزاوي، أي طريقة وزن استقامة الحجر في أركان المبنى بواسطة العين المجردة، والحدّة، فإذا أتقنها الصبي في مرحلة الملقف يتم الاتفاق بينه وبين أحد أفراد القرية ليقوم ببناء بيته، أو يحدث عنه أهالي القرى القريبة، وبهذا يشيع صيته كبنّاء على مستوى المنطقة (١٤١٥: ٥٢-٥٣).

المساجد سماتها العامة في تهامة. الاهتمام ببناء المساجد والعناية بها اتجاه عام في مختلف مناطق المملكة، نظراً لمكانتها ودورها الكبير في حياة الإنسان المسلم، فهي أمكنة للعبادة والعلم والتعليم والتفاعل والتواصل الاجتماعي. ومن هنا اهتم سكان تهامة بالمساجد والمشاركة الجماعية في بنائها وتشييدها، واختيار المواقع المناسبة لها، وإيجاد مصادر للدخل تعين على استمرارية المسجد وأداء رسالته. ومن المساجد التقليدية المعروفة في تهامة زهران حتى الآن: مسجد قرية ذي عين، ومسجد الجوّة، ومسجد المروة. ويعد موقع المسجد من أهم مميزاته؛ إذ إن وقوع المسجد في أطراف القرى وقريباً من المزارع يسهل على الأهالي اقتطاع بعض أجزاء من تلك المزارع لصالح المسجد عندما تدعو الحاجة إلى توسعته، كما يسهم هذا الموقع الطرفي المهم في توفير ناحية أمنية للقرية، كما يوفر موقع المسجد مكاناً لاستضافة الغرباء وعابري السبيل، في بناء متصل أو منفصل عن المسجد يعرف محلياً باسم المنزلة دون الحاجة إلى وجودهم في داخل القرية.

وتبرز السمات العامة لمساجد تهامة في أنها تشترك في خاصية واحدة تتعلق باختيار مواقعها في النواحي الطرفية من القرى. ويتفق جميع السكان المحليين على أن بناء المسجد مسؤولية أهل القرية جميعاً، إذ يتعاونون فيما بينهم لتوفير المواد اللازمة للبناء، إضافة إلى التضامن في تكاليف أجور العمالة والمعلمين الذين يجري توفيرهم، سواء من أهل القرية،

أو بالاستعانة بالقرى المجاورة. كما تشترك في وحدة التخطيط من ناحية الشكل الخارجي والتقسيم الداخلي، سواء لبيت الصلاة، أو الصحن، أو لبيت المنزلة الملحقة في المسجد. وجميع المساجد التقليدية في المنطقة تكاد تخلو من عنصر إنشائي مهم يتمثل في المنائر، وهذا يخل فقط بالناحية الجمالية للمسجد، أما من الناحية الوظيفية فهم في الغالب يؤدون الأذان من فوق أسطح المساجد بسبب عوامل جغرافية تسهل عليهم الارتقاء إلى المسجد، كأن يكون سطحه منحدراً عن أقرب كومة جبلية يلتصق بها.

ويلحق بالمسجد ما يعرف بالمنزلة، وهي مضافة تنفرد بها بصفة عامة مناطق السراة وتهامة، بحيث تكون هذه المنزلة ملاصقة للمسجد أو قريبة منه، وتخصص للغرباء وعابري السبيل. كما تتميز مساجدهم بخلوها من الزخارف الجدارية خشبية كانت أو حجرية. وتتسم ببساطة البناء، وصغر مساحة المسجد، وملحقاته، وقربه من الحقول الزراعية لتوفير المياه للمصلين، وإيجاد موارد اقتصادية للمسجد عن طريق الوقف من أصحاب هذه الحقول. كما أن جميع مواد البناء، وأسلوب بنائها مطابقة لما هو مألوف في بناء المساكن والدور في المنطقة (العبودي ١٤١٥: ٨٩, ٩٠).

ويبدأ بناء المسجد بجهد أهل القرية الذاتي. وقد يستعينون في بعض الأحيان بسكان القرى المجاورة لجلب الجسور الخشبية الكبيرة التي يبلغ طولها في بعض الأحيان أكثر من ٦م ومحيط الجسر الواحد قرابة متر، وتسمى المعادل (مفردها المعدل). كذلك يتعاضد سكان القرى لجلب الأخشاب الأصغر حجماً، وهذه الأخشاب أسطوانية دائرية الشكل يبلغ متوسط طولها ثلاثة إلى أربعة أمتار، ويسمونها السواري. ترص السواري باتجاه معاكس مع المعادل ويوضع فوقها طبقات من قصب اليراع المعاكس لها في الاتجاه، فوق ذلك تفرش الأبسطة (الخصف) أو بعض النباتات الصغيرة مثل الحلفاء الذي ينمو بكثرة في أودية منطقة السراة. وتعمل الأبسطة والنباتات على منع تساقط التربة المعجونة التي توضع فوقها، وتسمى الودفة، وهي المرحلة الأخيرة لعملية السقف. وغالباً ما تكون جميع الأخشاب المستخدمة في البناء من أخشاب العرعر. وهناك بعض أنواع الأخشاب الأخرى مثل الطلح والأثل التي تستعمل في النواحي الشرقية من المنطقة. ويقوم بصناعة أبواب المساجد ونوافذها حرفيون

متخصصون، إما من القرية موضع البناء أو من قرية أخرى. وفي هذه الحالة يكون الحرفي ضيفاً على أهالي القرية مدة إقامته بها فيستضيفه كل بيت من بيوت القرية بالتناوب.

ويتوزع أفراد القرية مهام البناء المتعددة؛ فمثلما يقوم الرجال بجلب الحجارة والطين والأخشاب فإن النساء يقمن بجلب الماء بالقِرَب. كذلك تقوم النساء بالتناوب بعمل وجبات الطعام للعاملين في البناء. وعند الانتهاء من بناء المسجد تقوم النساء بطلاء داخل المسجد بالتربة المعجونة التي تسمى الصهار أو القضاض، وتُسمى في بلاد غامد وزهران الخلوبة أو الخُلَبة. وهناك تنوعات في المواد المستخدمة لبناء المساجد. فمساجد القرى الواقعة على المرتفعات الجبلية، مثلاً، تبنى من الأحجار، أما مساجد الناحية الشرقية من المنطقة فغالباً ما تبنى من الطين المعجون (المداميك).

وفي بعض الأحيان نجد طرازاً يمزج بين النوعين السابقين، حيث يبنى الجزء الأسفل من المسجد بارتفاع متر إلى متر ونصف من الحجارة ويكمل الباقي بالمداميك. أما خارج المسجد فيُكسى بالجص (القضاض). ويزين المسجد بزخارف بارزة يكتب عليها بعض الآيات الكريمة أو تاريخ بناء المسجد.

وتكون مساحة المسجد في العادة صغيرة مع أنها تعكس في الغالب كثافة سكان القرية، إلا أن هناك عدداً من المساجد الواسعة الشهيرة الموجودة وسط كثافة سكانية كبيرة. ويقوم المسجد عادة على عمود أو عمودين أو ثلاثة أعمدة (سطاع)، وتسمى في غامد وزهران المرازح مفردها مرزح، أو زُفُر مفردها زافر، والمرزح أو الزافر هو العمود الذي يكون في منتصف المبنى داخل البناء التقليدي، وله وظيفة تتمثل في ارتكاز السواري عليه، ومن ثم يقوم مقام الجسر في المنزل الحديث، بطول يتراوح بين ٩م و ١٢م وبعرض ٦م تقريباً. وتحتوي المساجد على عدد من المرافق منها الصحن (الصوح)، وهو مساحة مستطيلة طولها هو طول المسجد وعرضها أقل من عرض المسجد. ويحيط بالصحن رواق من أحد نواحيه. وفي المسجد المغاسل (المطاهر أو مكان الوضوء)، وتبنى عادة في أقصى الجزء الجنوبي من صحن المسجد وقد تقام خارج الصحن، وهي أحواض ماء صغيرة يكفي الواحد منها لوضوء شخص واحد، ويفصل بين كل حوض والآخر حاجز صغير. وتتصل هذه الأحواض

بمجرى ماء يغذيها من حوض آخر كبير يقع أعلى منها ويملأ إما من خزان أرضي (بركة) تحت صحن المسجد أو من بئر خاصة به، تقع في ركن صحن المسجد. وقد يصل عمق بعض تلك الآبار إلى ٣٠م وقد لا يزيد قطرها عن مترين. وتحفر الآبار بالمساجد لضمان وجود الماء باستمرار، وقد تستمد البركة مياهها من الأمطار المجمعة من سطح المسجد.

ويحتوي المسجد أيضاً على المنزالة، وهي غرفة متوسطة الحجم يحرص القائمون على بناء المساجد قديماً على أن يلحقوها بالمسجد، وتُسمى في بعض مناطق السراة الظُّله، وهي تُقام في جميع المساجد دون استثناء، وكان الهدف منها استقبال ضيوف القرية من الفقراء. وهذه الغرفة ينزل بها المسافرون والحجاج إذا كان المسجد يقع على طريق الحج. وكان الجميع يعتنون بها دوماً وبنظافتها كما يقدمون لنزلائها الطعام والشراب طيلة إقامتهم بها. وتستعمل هذه الغرفة في بعض الأحيان لحلقات الدراسة.

وتزين بعض المساجد برسومات وزخارف حمراء وخضراء وبيضاء تشبه ألوان الدهانات الحديثة، وتقاوم عوامل التعرية وتحتفظ بشكلها لسنوات عديدة. وقد طُمس الكثير من هذه الزخارف عندما رُمم بعض المساجد بطريقة عشوائية لم تراع المحافظة على النقوش والكتابات القديمة، وطليت الزخارف بالدهانات الحديثة التي تحول دون التمكن من التعرف على الزخارف الأصلية. كما أن الأسقف المستعارة تحول أيضاً دون رؤية السقف الأصلي. وكانت المساجد تطلى بكاملها بالجص (القضاض) وهذا النوع من التشطيب كان مقصوراً على قصور الأثرياء وبيوتهم.

تهامة العُليا والأصدار

منطقة الأصدار بين سهول تهامة وحافة شعاف جبال السروات، وهي منطقة معقدة التضاريس تتدرج في الارتفاع كلما اتجهنا من سهول تهامة شرقاً، ويتراوح ارتفاعها عن مستوى سطح البحر بين ٥٠٠ و١٦٠٠م، وتعني الأصدار المناطق الواقعة في منتصف الحافة الانكسارية لجبال السراة بين السراة وتهامة؛ أما ما كان منخفضاً فيسمى تهامة العليا تمييزاً عن الساحل. كما توجد بها الوديان السحيقة التي تفصل الجبال والنجود بعضها عن بعض. ويلاحظ أن المرتفعات والوديان الملاصقة لحافة انكسار جبال السروات والجرف وعرة جداً يصعب ارتقاؤها أحياناً حتى بالحيوانات.

وكان لهذا كبير الأثر على حياة سكانها، إذ عاشوا في عزلة شديدة واتخذوا من سفوح الجبال وبطون الأودية سكناً لهم.

أما مناخ منطقة الأصدار فيمتاز بأنه أقل حرارة من سهول تهامة، إذ تقل الحرارة كلما زاد الارتفاع باتجاه جبال السروات، فيصبح الطقس في المناطق الجبلية أكثر ملاءمة لحياة الإنسان وراحته، بل وفي بعض المناطق يكون جميلاً رائعاً. ولا يعيب منطقة الأصدار سوى عزلتها وصعوبة الوصول إليها (الشريف ١٤٠٤، ج٢: ١٤٦). وتختلف درجات الحرارة من مكان لآخر حسب موقعه وارتفاعه، ففي حين يبلغ معدل درجة الحرارة في مرصد ملاقي الواقعة عند التقاء الجبال بالسهول ٢٥° مئوية في فصل الشتاء و٣٤° مئوية في فصل الصيف، فإن المعدلات تقل عن ذلك كلما زاد الارتفاع بالاتجاه الشرقي نحو مرتفعات السراة. ومع أن الرطوبة تزيد في منطقة الأصدار إلا أنها تقل عن الرطوبة في سهول تهامة. ويزيد معدلها السنوي على ٥٠٪ بسبب مواجهة المنطقة للرياح الرطبة، ويبلغ معدل حدها الأقصى ٨٠٪ في فصل الشتاء، في حين يصل حدها الأدنى إلى ٢٥٪ في فصل الصيف. والرياح السائدة على هذه المنطقة تهب من الناحية الجنوبية الغربية، وهي رياح ممطرة.

أما بالنسبة للأمطار فمنطقة الأصدار من أكثر مناطق المملكة مطراً، ففي جبال فيفا مثلاً يصل معدل سقوط الأمطار إلى ٥٢٤ملم، وهي بذلك تضاهي جبال السروات. وتكثر بها الأمطار لأنها تواجه الرياح الجنوبية الغربية الرطبة. وتسقط الأمطار في جميع الفصول إلا أنها تكثر في فصل الصيف والخريف. وتختلف كمية الأمطار من موقع لآخر حسب اتجاه التضاريس وارتفاعها ومواجهتها للرياح الممطرة، إذ تقل كمية الأمطار في الجبال والوديان المواجهة للشمال، ولا تصل أحياناً إلى نصف الكمية التي تسقط على مثيلاتها المواجهة للناحية الجنوبية الغربية، وذلك لعدم مواجهتها للرياح واعتراض الحواجز الجبلية مسار الرياح الممطرة القادمة نحوها.

ويعتمد سكان قرى الأصدار على الأمطار كمصدر رئيسي للمياه. لكن طبيعة جبالها المكونة من صخور نارية، وشدة انحدارها، تتسبب في ضياع هذه المياه عبر الأودية من دون أن يتسرب قسم كبير منها إلى داخل الأرض. ومع ذلك أمكن الاستفادة من هذه المياه عن طريق إقامة المصاطب الزراعية على

السفوح العليا من الجبال. كما يعتمد السكان المستقرون والبدو الرحل على مناهل المياه إضافة إلى حفر الآبار على جوانب الوديان وفي بعض سفوح الجبال كما في جبال فيفا. وتنتشر المساحات الخضراء في المنطقة، سواء أكانت أراضي مزروعة أم أحراشاً.

ومع أن منطقة الأصدار تتوافر بها المياه الكافية للعمران والزراعة والمناخ الملائم لحياة الإنسان، إلا أن تضاريسها الوعرة المعقدة حالت دون استغلالها، ولذا فهي منطقة قليلة العمران، وقد عاش سكانها فترة طويلة من الزمن في عزلة شديدة إلى أن تم فتح الطرق التي سهلت اتصالهم ببقية أنحاء المملكة.

ولحياة السكان الاجتماعية علاقة مباشرة بالتطور العمراني. فنظراً لوعورة منطقة الأصدار عاش سكانها حياة بدائية منعزلين عن الحضارة، وانشغل السكان بتربية مواشيهم وزراعة ما استطاعوا استصلاحه من مساحات زراعية. وينتسب معظم سكان هذه المنطقة إلى قبائل السراة، فنجد منهم على سبيل المثال من ينتمي إلى قبيلة قحطان وبعضهم إلى قبيلة عسير وآخرين من قبيلة بني شهر. ومعظم قبائل تهامة مرتبطة نسباً بقبائل السراة من الطائف حتى عسير.

وهكذا نجد أن كل قبيلة تنقسم إلى قسمين، قسم في السراة والآخر في الأصدار أو في تهامة، إضافة إلى أن لبعض أهالي السراة أراضي في الأصدار يهبطون إليها لرعي مواشيهم خصوصاً في فصل الشتاء أو عندما يقل الكلأ في جبال السراة.

أما عن الحياة الأمنية في منطقة الأصدار فقد كانت الاشتباكات القبلية مقتصرة على التناحر على مناهل المياه ومواقع المراعي والمزارع. ويندر وجود هجمات خارجية على المنطقة لقلة وجود الحوافز التي تغري بذلك، ولقلة كثافة سكانها وتناثرهم في تجمعات صغيرة يصعب السيطرة عليها. والهجمات الخارجية التي وصلت المنطقة كانت تعبر هذه المنطقة في طريقها من سواحل تهامة إلى مدن وقرى السراة والعكس، وكانت تتخذ مسارات محددة تفرضها التضاريس الوعرة، وتسمى العقاب (جمع عقبة).

ويعمل سكان المنطقة بصفة رئيسية في رعي الحيوانات، خصوصاً الماعز التي تجد مراعي مناسبة للغاية في السفوح الغربية للجبال. وإلى جانب الرعي يقوم السكان بزراعة المصاطب الزراعية التي بنيت على سفوح الجبال للحفاظ على التربة وللاحتفاظ بمياه الأمطار، إضافة

إلى المساحات الزراعية المحدودة في مواقع متناثرة في أحواض الوديان. وقد سمح الإنتاج الزراعي بوجود حياة مستقرة تتمثل في القرى الزراعية المتفرقة على سفوح الجبال وبطون الأودية.

ويعتمد السكان في بيع منتجاتهم وشراء مستلزماتهم الضرورية على الأسواق الأسبوعية التي تقام في مواقع متفرقة من المنطقة. ولقلة المساحات المستوية المناسبة لإقامة مثل هذه الأسواق في القرى فقد عمد السكان إلى استغلال بطون الأودية لإقامة أسواقهم مثل سوق الداير ببني مالك، وسوق المخواة وسوق قلوة؛ حيث بنيت المحلات التجارية على طرفي الوادي، أما البضائع الأخرى فتعرض في بطن الوادي. وعند هطول الأمطار وجريان السيول تلحق الخسائر بأهل السوق وخصوصاً أصحاب البضائع المكشوفة. وربما تمنع الأمطار الناس من إقامة السوق في موعده، إضافة إلى أن بعض الأودية يستمر جريان المياه فيها فترة طويلة وهذا يحد من الاتصال بين طرفي السوق على الوادي ويتسبب في اتساخ البضائع أو إتلافها.

ويعكس نمط العمران في المنطقة حياة الكفاف التي كان يعيشها السكان؛ فالمباني بسيطة وبدائية في معظم المنطقة، إضافة إلى أن اتصال سكان المنطقة بالحضارة محدود جداً. والقرى التقليدية إما في بطون الأودية حيث مصادر المياه والأراضي الصالحة للزراعة، أو على سفوح وأعالي الجبال خصوصاً الجبال التي يمكن استصلاحها زراعياً وبها المراعي الجيدة. وتمتاز القرى الواقعة في بطون الأودية بأن مبانيها متقاربة بعكس القرى والمساكن الواقعة في الجبال، فهي منتشرة تبعاً للملكيات الخاصة والمصاطب الزراعية. والمباني قلاع متناثرة في أعالي الجبال وعلى سفوحها.

منازل حصينة على قمة صخرية للسكن والدفاع

وتتوزع القرى في المنطقة تبعاً للحدود المتعارف عليها بين القبائل، ويلاحظ أن أكبر القرى هي التي يقام بها السوق الأسبوعي والمسجد الجامع، وغالباً ما تكون هذه القرى في بطون الأودية ليسهل الوصول إليها من مناطق متفرقة.

ويلاحظ أن المباني في السهول وبطون الأودية ذات مساحات أكبر من المنازل في أعالي الجبال. وتصل مساحة منازل الأودية إلى ٣٠٠م٢ وأدوارها من دور واحد إلى ثلاثة، بينما مساحة مباني الجبال قليلة (في حدود ١٠٠م٢) ويصل عدد أدوارها أحياناً إلى أربعة أدوار أو خمسة. ويعود ذلك لندرة الأراضي المستوية والحاجة إلى المحافظة على مساحة الأراضي الزراعية.

ويمتاز المنزل التقليدي بمنطقة الأصدار وجبال فيفا بأن معظم فراغاته مغطاة فيما عدا أجزاء بسيطة في الدور العلوي من المبنى (المشراح)، والفراغات المغطاة موزعة رأسياً على أدوار المبنى. والحركة داخل المنزل حركة رأسية، فالسكان ينتقلون بين عناصر المنزل الموزعة على أدوار المبنى من خلال الدرج، وهذا يختلف عن الحركة الأفقية في منازل منطقة تهامة عبر الفراغ المكشوف والحوش. أما الحركة بين المنازل أو بين المنازل والمسجد فتتم في ممرات محددة ومتعارف عليها تسمى عاده سُبل، تتاخم المزارع وتتبع خطوط الارتفاع ويكون عرضها من نصف متر إلى متر. لكن الحركة بين المنازل والمزارع والمراعي لا تستخدم مسارات محددة، وأحياناً تكون صعبة لتعامدها مع خطوط الارتفاع.

العمران وأنماطه في منطقة الأصدار.

يمكن تقسيم عمارة هذه المنطقة بصفة عامة إلى ثلاثة أنواع من المساكن هي المساكن النباتية (العشش) ومساكن الكهوف الطبيعية والمساكن الحجرية.

تبنى العشش مثل الأنواع الموجودة في تهامة إلا أن هذا النوع بمنطقة الأصدار أكثر بساطة. أما الكهوف والشقوق الجبلية الناتجة من التكوين الطبيعي لجبال السراة الغربية فقد استعملها الرعاة وقاموا بتسويتها وتكييفها والاستقرار بها خصوصاً وقت النهار أثناء رعي الأغنام، ولقد وجد العديد من تلك الكهوف التي قام أصحابها ببناء واجهتها وأحياناً بناء فاصل وسطها لتقسيمها، وسبب استخدام تلك الكهوف إلى الوقت الحاضر رغم شكلها البدائي يعود إلى أن الرعاة غير مستقرين في منطقة محددة، وإنما ينتقلون حسب وجود الكلأ، إضافة إلى أن الحافة الغربية من جبال السراة

شديدة الانحدار وغير آمنة من الكوارث الطبيعية الناتجة من سقوط الأمطار حيث تكثر الانهيارات الصخرية أثناء وجود الرعاة بأغنامهم على هذه السفوح، ولذا يلجأون إلى الكهوف الطبيعية لحماية أنفسهم ومواشيهم لفترات غير محددة تحكمها كمية الأمطار الساقطة على تلك المنحدرات.

وأما المساكن الحجرية فيبدأ انتشارها مع بداية ارتفاع جبال السروات من الناحية الغربية، وتتكون هذه المساكن من ثلاثة أنواع؛ الأول عبارة عن مبان بدائية بسيطة تأخذ شكل مستطيل طوله حوالي ٧م وعرضه في حدود ٤م وأحياناً يفصل المسكن من الداخل إلى قسمين ويبنى هذا النوع من المساكن من الحجارة الجبلية غير المنتظمة حيث يرص بعضها فوق بعض بدون استخدام مونة، وترتفع إلى حوالي ٢,٥م وتسقف بأغصان وجذوع شجر السدر أو العرعر ومن ثم الطين والخلب. وتبنى هذه المساكن في السفوح العليا لاستخدامها من قبل الرعاة. والنوع الثاني من المساكن الحجرية يعد أكثر تطوراً من الأول لأنه يمثل حياة الاستقرار، ويمتاز تصميم هذه المساكن بكونها تأخذ الشكل العضوي الذي يتمشى مع طبيعة الأرض المختلفة المناسيب، حيث ترص الغرف بعضها بجانب بعض بشكل غير منتظم، ومعظم المساكن تبنى غرفها شبه الدائرية حول مساحة مفتوحة كما تبنى أحياناً غرفة منفصلة لإيواء الماشية خلال النهار. ومن دراسة تصميم أحد المساكن وجد أن توزيع استخداماته غير جيدة، إذ يلاحظ اختلاط وتقارب الغرف المخصصة للمعيشة والنوم مع تلك المخصصة للمواشي، وربما يعزى ذلك إلى أن أهل المسكن يفضلون القرب من مواشيهم لحمايتها. وطريقة بناء هذه المساكن مشابهة للطريقة التي يبنى بها النوع الأول.

ويبقى النوع الثالث من المساكن الحجرية وهو أكثر تطوراً من النوعين السابقين ويظهر فيه خصائص عمران منطقة الأصدار ويمتاز بأنه يأخذ أشكالاً فريدة على مستوى المملكة منها الأشكال الأسطوانية ومنها الرباعية.

وما زالت القرى التقليدية تنتشر في منطقة الأصدار أكثر منها في سهول تهامة، وربما يعزى ذلك إلى أن المباني هنا تعيش كثيراً لكونها مباني حجرية إضافة إلى أن التنمية العمرانية بها قليلة جداً مقارنة بما يوجد في مدن وقرى تهامة، ومن الزيارات الميدانية وجد أن العمران في قرى جبال فيفا وفي قرى

رجال ألمع يُعد أفضل عمران في المنطقة من حيث تقنية البناء والتصميم، وقد تم اختيار نموذج العمران التقليدي لجبال فيفا لانفراده بخصائص عمرانية نادرة ليس على مستوى المنطقة فحسب بل على مستوى المملكة، هذا بالإضافة إلى أن عمران قرية رجال ألمع يتشابه كثيراً مع قرى المرتفعات التي سنتناولها لاحقاً.

العمران في قرى جبال فيفا. تقع جبال فيفا شمال شرقي مدينة جازان على مسافة حوالي ١٥٠كم، وهي جبال وعرة المسالك، يعتمد سكانها اقتصادياً على الزراعة المطرية على سفوح الجبال التي تم تحويلها منذ قديم الزمن إلى مدرجات زراعية، كما يقوم السكان أيضاً برعي الأغنام حيث الغطاء النباتي الجيد.

ويمتاز مناخ جبال فيفا بأنه معتدل الحرارة صيفاً ويصل متوسط درجات الحرارة إلى ٢٠° مئوية، وهو بارد شتاء إذ يقل معدل متوسط درجات الحرارة عن ٧ درجات مئوية، أما أمطارها فغزيرة خاصة في فصل الصيف، ويصل معدل الأمطار إلى ٦٠٠مم في العام، وتهب عليها رياح جنوبية غربية يصل معدل سرعتها إلى ٧,٥ كم/ ساعة، كما تتعرض للعواصف الممطرة التي تصل سرعتها إلى ١٠٠ كم/ ساعة. ويمتاز مناخها باعتدال نسبة الرطوبة وكثرة وجود الضباب والسحب، خصوصاً في فصل الشتاء إذ يتراوح عدد الأيام القاتمة كلياً ما بين ١٠ إلى ١٠٠ يوم في السنة وعدد الأيام القاتمة جزئياً حوالي ١٠٠ إلى ١٥٠ يوماً في السنة.

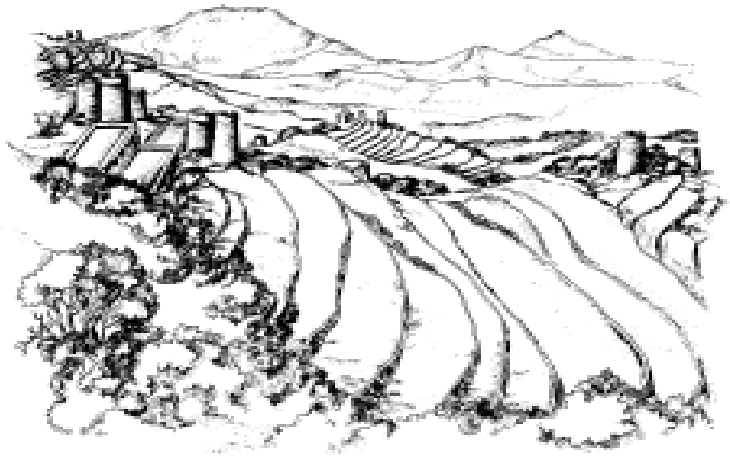

يتماشى العمران مع خطوط الكنتور في جبال فيفا

وتسكن جبال فيفا قبيلة فيفا التي تسمى الجبال باسمها، وتتوزع فخوذ القبيلة على الجبال التي حوّلوها إلى مصاطب زراعية، كما أن الطبائع والعادات القبلية ما زالت تغلب على سكانها حتى وقتنا الحاضر فتتوزع القرى على سفوح الجبال وأعاليها حسب توزيع فخوذ القبيلة والملكيات الخاصة باللحمة (العشيرة). وكانت القبيلة قبل الحكم السعودي تتعرض دائماً للغزو والنهب خصوصاً من القبائل المجاورة.

ويمتاز النمط العمراني لجبال فيفا بكونه نمطاً منتشراً ومتناثراً، وتبنى المساكن متفرقة حيث يقوم كل مواطن ببناء مسكنه في مزرعته لحراستها والدفاع عنها، كما أن طبوغرافية الجبال الوعرة لا تساعد على تجميع المساكن حول بعضها ولو كانت متجمعة لصعب على السكان الوصول إلى مزارعهم المرتفعة أو المنخفضة بسهولة حيث إن الملكيات والمصاطب تتوزع مع خطوط الكنتور أفقياً ورأسياً كما أن الضباب يحد من مراقبة المزارع من بعد.

ومن دراسة الكتلة العمرانية والفراغ العمراني (الخواء) لجزء من مباني جبل فيفا لوحظ أن نسبةالفراغ العمراني المتمثل في مصاطب المزارع والأراضي الجبلية المفتوحة كبير جداً مقارنة بالكتلة العمرانية المتمثلة في المباني القلاعية القليلة المساحة والمنتشرة بين المصاطب الزراعية.

نموذج لمبنى تقليدي بجبال فيفا. لقد تم اختيار تشكل المباني التقليدية بجبال فيفا طابعاً معمارياً فريداً ليس على مستوى المنطقة فحسب، بل على مستوى المملكة خصوصاً تلك المباني ذات الأشكال الأسطوانية حيث النسب الجمالية في المبنى والتقنية العالية في البناء وأسلوب التنفيذ.

وتشكل المباني الأسطوانية بجانب بعض المباني المستطيلة أو المربعة النمط السائد للمباني في جبال فيفا وتأخذ جميعها الشكل الدفاعي فكل مبنى يصمم على هيئة قلعة منفصلة تشرف على مساحة من الأراضي الخاصة. ولكن لماذا تأخذ تلك المباني الشكل الأسطواني في تصميمها؟.

ومن خلال البحث والاستقصاء ومقابلة بعض سكان تلك المباني، خصوصاً كبار السن، أمكن استنتاج مجموعة عوامل أهمها النواحي الأمنية والإنشائية والمناخية والجمالية.

النواحي الأمنية: إن الشكل الأسطواني للمبنى ذي الفتحات التي تطل على جميع الجوانب يساعد على كشف

أكبر مساحة ممكنة من الأراضي ومراقبتها، خصوصاً أن المبنى يأخذ موقعاً بعيداً عن المباني الأخرى. ويتمشى الشكل مع أشكال المدرجات شبه الدائرية التي تتمشى مع خطوط الكنتور، كما يساعد على حماية المبنى من طلقات الرصاص لأن الشكل الدائري يجعل قوة الطلقة تنحرف فلا تؤثر كثيراً.

النواحي الإنشائية: ذكر بعض كبار السن أنهم يواجهون صعوبة للحصول على الأخشاب الطويلة المستخدمة في السقف. لذا فإن الشكل الدائري يخدمهم في ذلك فهو لا يتطلب أخشاباً طويلة عدا العدد القليل إضافة إلى استخدام عمود في وسط الغرفة للمساعدة في الإنشاء.

النواحي المناخية: لا يتأثر الشكل الأسطواني كثيراً بقوة الرياح والعواصف المطرة التي تهب على جبال فيفا وذلك لأنه يجعلها تنحرف إلى أحد جانبي المبنى.

النواحي الجمالية: إن السكان هناك يتباهون بالمبنى المدور لجماله وقوته، وقد سئل أحد كبار السن كان يقيم مبنى حديثاً بالحجارة شكله مستطيل لماذا لم يبنه دائرياً؟. فأجاب بأنه يرغب في ذلك ولكن الذين يحكمون البناء الدائري عددهم قليل ومعظمهم توفاهم الله ولذا فإن الشكل المستطيل أسهل تنفيذاً وأقل تكلفة.

تصميم المسكن وعناصره. نظراً لقلة الأراضي المستوية الصالحة لإقامة المباني السكنية في جبال فيفا، فإن كل من يرغب في بناء مسكن عليه أن يقتطع من مساحة أرضه الزراعية، ولذا عمد السكان إلى تصغير المساحات المخصصة للمباني والارتفاع بها من ثلاثة إلى أربعة أدوار، ولا يتم غالباً تخصيص حوش حول البناء بل يفتح المبنى بشكل مباشر على فراغ مفتوح يتصل بالمدرجات الزراعية، ويتم تصميم فراغات المسكن حسب استعمالاتها.

يتكون الدور الأرضي من المدخل الرئيسي للمبنى وأحياناً يكون به مدخل آخر للماشية، والمدخل عموماً صغير الحجم فلا يتجاوز عرض الباب متراً واحداً، وارتفاعه لا يتجاوز ١,٦م ويؤدي المدخل الرئيسي إلى الدرج الصاعد إلى الأدوار العليا، والدرج غالباً صعب الصعود وضيق وبعيد عن المقاسات المتعارف عليها لدرج المساكن، إلا أن السكان تعودوا عليه ويحسون بالصعود معه طبيعياً ويحتوي الدور الأرضي على مكان لإيواء المواشي ومخازن (مدافن)

الحبوب إضافة إلى مكان مخصص لتعليق قرب المياه.

أما الدور الأول فقد صمم فراغه للمعيشة والنوم، وغالباً ما يكون فراغ هذا الدور مفتوحاً بدون حواجز، وربما يخصص جزء منه مستودعاً للغلات الزراعية. ويحتوي الدور الثاني على قسمين رئيسيين هما المطبخ ويسمى محلياً سطحة وبه أفران للخبيز (الميفا) ومكان يخصص للجلوس العائلي وتناول الطعام ويسمى المشراح ويمتاز المشراح بأن جزءاً منه يكون غير مسقوف، وأحد حوائطه قصير، ومنه يتمكن أهل المسكن من متابعة ومشاهدة ما يدور حول المسكن. هذا إضافة إلى البرج الذي يخصص للمراقبة.

ويحتوي الدور الثالث على سطح المنزل المكشوف الذي يستخدم أيضاً للمراقبة وبه مكان مخصص لتجميع مياه المطر للاستفادة منها، وربما يلحق بالسطح فراغ مسقوف يستخدم لوضع خلايا النحل، حيث تشتهر المنطقة بتربية النحل والنوعيات الجيدة من العسل.

السمات العمرانية بمنطقة الأصدار.

يمتاز المنزل التقليدي بمنطقة الأصدار – خاصة في جبال فيفا– بأن معظم فراغاته مغطاة فيما عدا أجزاء بسيطة في الدور العلوي من المبنى (المشراح) والفراغات المغطاة موزعة رأسياً على أدوار المبنى.

والحركة داخل المنزل عبارة عن حركة رأسية، فالسكان يتنقلون بين عناصر المنزل الموزعة على أدوار المبنى من خلال الدرج، وهذا على عكس الحركة في منازل تهامة التي تعد الحركة فيها أفقية عبر الفراغ المكشوف والحوش. أما الحركة خارج المنزل فهي نوعان؛ حركة التنقل بين المنازل، وبين المنازل والمسجد وتتم هذه الحركة في ممرات محددة ومتعارف عليها تسمى عاده سبل وتأخذ مسارها بأطراف المزارع حسب الخطوط الكنتورية. والحركة بين المنازل والبيئة المحيطة (المزارع، مصادر المياه، المراعي) وهذه الحركة لا تأخذ غالباً مسارات محددة فالمنزل تحيط به المزارع والمراعي، وتتغير اتجاهات الحركة حسب موقع المكان المطلوب فأحياناً تكون الحركة صعبة لتعامدها مع خطوط الكنتور وأحياناً تكون متمشية مع خطوط الكنتور.

استعرضنا خطوات إنشاء المنزل التقليدي في جبال فيفا بصفته أهم عنصر في العمارة التقليدية في منطقة الأصدار، وبناء المنزل يتطلب بنائين محترفين لإجادة التفاصيل الإنشائية خصوصاً إذا كان المنزل من الأنواع الأسطوانية الشكل. ويتكون

فريق العمل غالباً من ثلاثة أشخاص، المعلم (الباني) الذي يقوم برص الحجارة، والمشفر كما يسمى محلياً، وهو الذي يقوم بتكسير الحجارة وتسوية جوانبها، والملقف الذي يقوم بحمل الحجارة ورفعها إلى المعلم. ويمر إنشاء المنزل بخطوات عديدة؛ أول ذلك أن يقوم صاحب المنزل باختيار الموقع الملائم للبناء داخل حدود أملاكه، ويكون الموقع غالباً بالقرب من مقطع للحجارة التي يبنى بها المنزل ومن ثم يقومون بتسوية الموقع وهذا يكلف الكثير لوعورة الأرض. ثم يعملون على توفير مواد البناء من الحجارة التي يتم استخراجها من أقرب مقطع للحجارة والأخشاب من الملكية الخاصة أو من حدود غابات القبيلة. وبعد تسوية الموقع وتوفيرمواد البناء يقوم صاحب المنزل بالاتفاق مع البنائين على تحديد مساحة المبنى وعدد أدواره وشكله (رباعي أو دائري). ثم يقوم البناؤون بعد تحديد محيط المبنى وتقسيم فراغاته بحفر الأساس بعرض متر وبعمق يصل إلى متر ونصف في الأراضي الزراعية ويقل عن ذلك في المواقع الصخرية، ويمكن أن يبدأ البناء على سطح الصخور مباشرة في حالة تعذّر حفرها.

يلي ذلك بناء الأساس إلى سطح الأرض باستخدام حجارة كبيرة الحجم كلما أمكن. وبعد تحديد فتحات الأبواب ومكان الدرج يستمر البناء على شكل عقود، كل عقد بارتفاع حوالي ٤٠سم وبعرض متر واحد في الدور الأرضي، ويقل العرض كلما ارتفع المبنى إلى أن يصل إلى حوالي ٦٠سم في أعلى المبنى، وتبنى العقود برص الحجارة بجانب بعضها بدون استخدام مونة، وإنما تملأ الفراغات بكسر الحجارة الصغيرة التي تتحمل كثرة الأمطار بعكس مادة الطين.

ويغطى سقف الدور الأرضي باستخدام جذوع شجر العرعر والنشم كسوارٍ تمتد بين الحوائط وتغرس في الحائط ويبنى عليها، وقد وجد أن الغرف الدائرية في المباني الأسطوانية يتوسطها عمود من الخشب وتعلوه سارية رئيسية، وتغطى السواري باستخدام أغصان شجر العتم (الزيتون البري) بطريقة تعاكس السواري، ثم يغطى السقف بمادة الخلب الطينية كأرضية للطابق الأول.

وهكذا يستمر البناؤون في استكمال بناء بقية الأدوار مع مراعاة وضع فتحات النوافذ التي تظهر في الدور الأول والأدوار التي تليه. وبعد اكتمال الهيكل الإنشائي للمنزل تعمل لياسة الأسطح الخارجية لبعض المباني وتركب الأبواب والنوافذ الخشبية المصنوعة بواسطة

حرفيين، وباستخدام مواد محلية، وبذلك ينتهي دور الرجال في البناء ويبدأ دور النساء في مرحلة التشطيب والتصميم الداخلي للمنزل.

وينجز التشطيب الداخلي على مرحلتين؛ الأولى مرحلة الطلاسة، وهي عملية تكسية الحوائط من الداخل باستخدام الطين المخلوط بروث الأبقار أو التبن، وتتم هذه العملية لعدة مرات حتى تصبح الجدران ناعمة ومستوية. أما المرحلة الثانية فهي عملية التبييض باستخدام الطين الأبيض الذي تليس به الحوائط ليعطي الغرف الداخلية لوناً فاتحاً، وفي بعض المنازل تزين الغرف وتزخرف باستخدام الصبغات النباتية.

السراة

تمتاز السراة بكثرة الجبال العالية ذات الطبيعة الخضراء، مثل جبل السودة في عسير الذي يعد أعلى قمة في المملكة، إذ يبلغ ارتفاعه ٣٠٢٥م فوق مستوى سطح البحر، كما يمتاز موقعها بأنه يطل على الجرف الذي يحد المنطقة غرباً، والذي يحتوي على الخط الذي يحدد اتجاه مسار المياه. وينحدر السطح عنده بشدة باتجاه العقبات في جهة الغرب، بينما ينحدر تدريجياً باتجاه الشرق إلى منطقة الهضاب الداخلية التي تحد المرتفعات من الناحية الشرقية. وبذلك يقسم مسار جريان الأودية إلى الاتجاه الغربي (العقبات) وإلى الاتجاه الشرقي نحو الهضاب الداخلية. ويمكن وصف طبوغرافية المنطقة بأنها مجموعة من القمم الشامخة والوديان السحيقة والمنبسطة، وبين هذه وتلك توجد الهضاب المرتفعة والواسعة وبها استوطن السكان وانتشرت القرى واستثمرت الأراضي. والمرتفعات كتلة جبلية هي جزء من الدرع العربي الذي يتكون من الصخور النارية والمتحولة التي تتصف بصلابتها وبأنها كتيمة غير مسامية لا تمرر المياه ولا تحتفظ بها. وتعد صخور الجرانيت والشست بأنواعها من أهم الصخور السائدة، ولتوافر مثل هذه الصخور تتشابه قرى السراة التقليدية من الطائف وحتى جنوب عسير في أسلوب إنشائها، الذي يعتمد على الحجر كمادة أساسية في البناء.

أما مناخ السراة، فعلى الرغم من وقوعها ضمن المنطقة الحارة وسقوط أشعة الشمس عليها بزاوية عمودية تقريباً في فصل الصيف إلا أن ارتفاعها عن مستوى سطح البحر، وتساقط الأمطار عليها، وتوافر الغطاء النباتي الذي يكسو مساحات كبيرة من المنطقة، كل ذلك

أدى إلى خفض درجات الحرارة بها. حيث تصل معدلات الحرارة العظمى في فصل الصيف إلى ٢٢ْ مئوية، بينما تنخفض درجات الحرارة خلال الليل إلى نصف درجة الحرارة اليومية. أما في فصل الشتاء فتتمتع المناطق الجبلية بنهار دافئ إلا أن درجة الحرارة ليلاً تنخفض بشكل حاد لتصل أحياناً إلى درجة الصفر المئوي. ويزيد المدى الحراري السنوي (الفرق بين أعلى درجة حرارة في السنة وأدناها) في منطقة المرتفعات على المدى في منطقة تهامة، حيث يصل مثلاً في مدينة أبها إلى ١٨ْ مئوية. ويتراوح متوسط درجات الحرارة المئوية في مدينة خميس مشيط، القريبة من أبها، بين ١٢,٨ْ مئوية و٢٣,٧ْ مئوية. أي أن درجة الحرارة معتدلة في فصل الصيف بينما تميل إلى البرودة في فصل الشتاء. وفي الباحة يصل معدل درجات الحرارة صيفاً من ٢٠ إلى٢٤° وتبلغ شتاء من ١٠- ١٤ْ مئوية.

وتقل الرطوبة النسبية في المرتفعات عنها في سهول تهامة لبعدها عن البحر وارتفاعها، إلا أنها أكثر من المناطق الداخلية (الهضاب)، ويزيد معدل الرطوبة النسبية السنوي على ٥٠٪ في الجبال بسبب مواجهتها للرياح الرطبة. وتسبب الرطوبة العالية في الجبال المواجهة للرياح الرطبة تكوين الندى في أواخر الليل أو تكوين الضباب في الأوقات الأخرى فيعوضان عن نقص المطر ويساهم التكاثف الناتج عن ذلك في نمو النبات.

وتمتاز المرتفعات بتساقط الأمطار في جميع فصول السنة، إلا أن أمطار فصل الصيف تشكل الجزء الأعظم من كمية الأمطار السنوية في العديد من مناطق أعالي السراة. ويصل معدل الأمطار السنوي في مدينة أبها مثلاً إلى ٥٥٠ملم، وفي خميس مشيط إلى ٣٨٩مم. كما أن القيم القصوى للتبخر والإشعاع الشمسي تنخفض عند قمم الجبال، لأن السحب والضباب تظلل هذه المنطقة في فترات طويلة إضافة إلى غطائها النباتي الذي تمتاز به عن بقية مناطق المملكة.

وينتمي سكان السراة إلى قبائل يعيش بعض بطونها في السراة ويعيش البعض الآخر في تهامة والأصدار. ويعمل السكان بصفة رئيسية في الزراعة، كما يعمل بعضهم في رعي الماشية والتجارة والحرف اليدوية البسيطة.

وتنتشر القرى التقليدية في جبال السروات بسبب مناخها الملائم وتوافر المياه والمصاطب الزراعية والغطاء النباتي.

ونظراً لطبيعتها الجبلية فالمساحات المستوية قليلة والملكيات متعددة وصغيرة، لذا ينتشر العمران في المنطقة على شكل قرى متفرقة معظمها صغير، وقد لا يفصل بين القرية والأخرى إلا مئات الأمتار، إلا أن كل قرية مستقلة بذاتها في تصريف شؤون حياتها ولا يجمع أهالي القرى سوى المناسبات الدينية والاجتماعية أو الأسواق الأسبوعية. وتتوزع القرى تبعاً لنمط التوزيع المكاني للقبائل وفروعها وأفخاذها التي تتخذ من سفوح الجبال وجوانب الوديان العليا مواقع استيطان لها.

ويمتاز نمط القرى التقليدية في السراة باتصالها من جهة بمصادر المياه والمزارع حيث تعد المهنة الرئيسية للسكان، كما تتصل بالمراعي القريبة منها من جهة أخرى. ويعتمد سكان قرى السراة على الآبار المحفورة بالقرب من الوديان مصدراً رئيسياً للماء. ويجري الماء عبر قنوات إلى مسجد القرية أو يحمل إليه بالقرب.

كما يمتاز النمط العمراني لقرى السراة بأن معظم مبانيها حجرية متلاصقة تقريباً، وتتخللها الممرات الضيقة والمغطاة في بعض أجزائها. وتظهر الطرقات التي يسير فيها الناس والماشية واضحة تصل بين المساكن والمزارع والمراعي. وقد أدت العوامل الدفاعية دوراً أساسياً في توجيه ممرات القرية، فمداخل القرية محددة، وتقفل أحياناً بأبواب كما في قرية السودة. وقد شاعت في المنطقة مباني الأبراج والقصبات والحصون المخصصة للأغراض الدفاعية. ويوجد بكل قرية برج أو أكثر للحماية ولخزن الحبوب. وقد صممت المساكن شبيهة بالأبراج إضافة إلى أن مواقع القرى تختار لمميزاتها الدفاعية، فهي إما محتمية بجبل يصعب اقتحام القرية من جهته، أو تكون على تلة مكشوفة وتعلوها الأبراج التي تكشف جميع الاتجاهات.

ومن ضروريات مواقع قرى السراة التقليدية، سهولة تأمين مواد البناء، إذ يلزم أن يكون لكل قرية مقلع للحجارة يعد ملكاً مشتركاً، وقد تتوافر عدة مقالع، ولا بد أن تكون على مسافة معقولة يمكن للجمال والحمير المحملة بالحجارة قطعها. كما أن أخشاب البناء يمكن الحصول عليها من المواقع المحمية بعد أخذ موافقة أهالي القرية (الجماعة). والحمى أو المحميه تعني الأرض الداخلة في الملكية المشتركة، المتعارف عليها على مستوى القبيلة أو القرية، ويحظر استغلالها بحكم الاتفاق إلا بشروط معينة، وقد تكون المحمية مراعي أو غابات.

الدار (الحصن). تبنى منازل القرية التي تسمى الدور أو الحصون في السراة على سفوح الجبال وفوق المزارع الخاصة بالقرية. ويحاول كل صاحب منزل في القرية أن يكون منزله مُطِلاً على مزرعته، وذلك للنظر إليها من شباك منزله ومراقبتها. والمنزل في القرية عادة يكون من دورين، الدور الأرضي ويسمى السفلي أو الريشة عند بعض قرى عسير حيث يكون مقر الماشية وقت الشتاء، أما وقت الصيف فهناك مساحة مكشوفة خارج المنزل تسمى الحوي وهي تشبه الزريبة، كما توجد بالدور الأرضي مخازن يوضع فيها قصب الذرة الجافة طعاماً للأبقار. ويسمى الدور الأول بالدور العلوي حيث توجد به غرفة تسمى في بعض القرى مجلساً أو خلوة، وهذه خاصة باستقبال الضيوف، وغرفة ثانية للمعيشة وغرفة ثالثة للنوم وغرفة رابعة لنوم الضيوف، وبأعلى السطح المطبخ ويسمى الملهب أو المسقف في بعض القرى من عسير، ويبنى جزء من السطح على ارتفاع ١,٥م حيث يلي المطبخ ويسمى شمّاسي ويستعمل لتجفيف الملابس والأثاث وللجلوس به أيام البرد للمشراق، وتستفيد منه ربة المنزل في تنقية الحبوب المعدة للطحن. وكذلك يشتهر المنزل العسيري بما يسمى الصلل، وهو مكان يوضع فيه جمر النار ويكون في مقدمة الغرفة وفي أحد أركانها، وتوضع به دلال القهوة وبراريد الشاي (مفردها برّاد)، وفي أعلى الصلل هناك ما يسمى بالتختة وتتكون من عدة أرفف ومزينة برسوم جميلة تسمى القط، وتوضع بها الأدوات المنزلية المعدة للقهوة والشاي لغاية جمالية. وفي المجلس أيضاً عمود يسمى سطاع يساعد في حمل السواري المعتمدة على ما يسمى بالمعدل، والمعدل سارية قوية تعترض سقف الغرفة لالتقاء السواري الصغيرة عليها والسطاع يمسكها من الوسط أو من أحد الأطراف. كما أن المنزل العسيري يشتهر بأبوابه وشبابيكه المصنوعة محلياً من خشب العرعر أو الطلح. وفي البيت العسيري يوجد بكل غرفة نوم ما يسمى بالسياع، وهو عمود من الخشب المعلق من طرفيه بسقف الغرفة، وذلك لتعليق الفرش عليه، وهو في ذلك الوقت دولاب غرفة النوم. كما أن بعض المنازل في عسير فيها غرفة مستديرة ومربعة الشكل بأعلى السطح تستعمل مخزناً لحفظ الحبوب، وبها فتحات عديدة من جميع جدرانها الأربعة وذلك لتهوية المخزون من الحبوب، كما أن أهل عسير يستعملون ما يسمى بالدبب وهو بناء

سطاع (عمود) في المجلس يحمل السواري

يرتفع عن الأرض بحوالي نصف متر مما يلي الشبابيك حيث يستعمل مقاعد (كنب) وذلك ليتمكن صاحب المنزل وهو جالس من النظر عبر الشباك إلى مزرعته، أو في حالة نزول الأمطار أو غير ذلك، كما أن البيت العسيري يشتهر بما يسمى الحوش أو الحصير في بعض القرى، وهو ما يشبه في الوقت الحاضر فناء المنزل. ويشتهر المنزل العسيري بما يسمي الخضار حيث تدعك جميع أسافل الجدران الداخلية على ارتفاع متر من الأرض بورق البرسيم (القضب) ثم يروّس بما يسمى القط، وهو خطوط جميلة من فوق الخضار، ويحتوي على زخارف ورسومات بارزة ملونة، وتفرش أرضية المنزل العسيري قديماً ببسط الخبار والفرائق والزل.

وتعد قرية المخض الواقعة على بعد حوالي ٨كم غربي مدينة أبها نموذجاً لقرى السراة. وهي من أقدم القرى التقليدية التي ما زالت عامرة بمبانيها وسكانها، في الجزيرة العربية. ويدل على قدمها الكتابة التي وجدت في المسجد الأثري بالقرية، وتشير إلى أنه قد أعيد ترميم المسجد في منتصف القرن الثالث الهجري وبالتحديد في سنة ٢٥٢ للهجرة (المازني ١٩٣٠ : ٦). ولا يزال تكوين القرية العمراني واضحاً بكل عناصره ومعالمه، إذ إن القرية لا زالت بطبيعتها التقليدية ولم تتأثر كثيراً بالحضارة الحديثة. والقرية من نحو ٨٢ منزلاً، ومسجدا، وأربعة أبراج للمراقبة، وجميعها مبنية من الحجر الطبيعي، وبعضها مطلي من الخارج بالجير، ويتراوح ارتفاع مبانيها بين دورين وخمسة أدوار. كما توجد ساحة للتجمع والاحتفالات تلاصق المسجد. وتربط مساكن القرية دروب ضيقة متعرجة تفتح عليها أبواب المنازل وتؤدي إلى المزارع والمراعي.

سطاع يسند السقف في بلجرشي مع ملاحظة الزخرفة على الخشب

ويظـهر في نمط الـقرية الـعمراني الحرص على توافر التجهيزات الأمنية، فالقرية تشبه مدينة مصغرة محصنة بمبانيها الدفاعـية المتلاصقـة التي تشكل سـوراً محكماً حول القرية له أربعة أبواب رئيسية تقفل عند اللزوم. ويوجد فوق كل مدخل حامية (برج لـلمراقبة)، كما أن القريـة بنيت في موقع استراتيجي، فهي تحتمي بجبل كبير من الناحية الشرقية وبالوادي (مجرى الـسيل) من النـاحية الغربيـة، وتحميهـا أبراجها العاليـة من الناحيتـين الجنوبية والشمالية. وللقرية مكانتها على مستوى القبيلـة، إذ إنها تشكل حاضرة قبيلة بني مازن، ولكل فخذ من القبيلة مكانٌ مـخصص في الأبـراج الدفاعيـة لتخـزين الطعام ولـلإسهام في حمـاية القرية، خصوصاً أن القرية محاطة بقرى من قبائـل أخرى. والقرية موزعـة إلى لحام (عشائر رئيسية) كل لحمة (عشيرة) لها مدخلها وممرها الخاص والذي تتوزع عليه أبواب منـازل العوائل المنتسبة إلى اللحمة بطريقة تضمن الخصوصية والأمان لكل عائلة. وقد يكون الممر مغطى.

ونجد في قرى السراة أن نسبة المساحة المبنية إلى إجمالي مساحة القرية كبيرة، لأن المبانـي متلاصقة ومتـصلة بعضـها ببعض، ولا يوجد بها فناءات مفتوحة. أما الـفراغات العـمرانيـة فتتـكون من الدروب المـكشوفة والـساحة الرئـيسية للقرية. ويتلاءم هذا التكوين مع طبيعة

الأرض المرتفعة حيث المساحات المنبسطة قليلة، كما يتلاءم مع المتطلبات الأمنية والمناخية.

البيوت التقليدية. تشيد المباني في قرى السراة بالحجر الخالص عدا بعض المباني القريبة من منطقة الهضبة، فتبنى من الحجر في الأساسات والدور الأول ثم قد تستكمل بمادة الطين مع الرقف. وقد تكون المباني في منطقة السراة متلاصقة أو منفصلة وقائمة بذاتها على هضبة تشرف على مساحة من الأراضي الزراعية على أطراف الأودية. ونظراً لقلة الأراضي المستوية الصالحة لإقامة المباني السكنية في منطقة السراة فإن معظم المباني ذات مساحات صغيرة (من ١٠٠م^2 إلى ٢٠٠م^2) وتأخذ الشكل المربع تقريباً في مسقطها الأفقي. وتتوزع عناصر المسكن على أدواره التي تصل إلى الخمسة، ولا يخصص حوش حول البناء إلا في النادر، بل تفتح المباني بشكل مباشر على ممرات القرية أو البيئة المحيطة في حالة المباني المنفصلة.

يحتوي الطابق الأرضي في المنزل التقليدي على المدخل الرئيسي، وأحياناً يكون به مدخل آخر للماشية، كما يحتوي الطابق الأرضي على مكان لإيواء المواشي ومخازن للأعلاف ومدافن للحبوب. ويتصل المدخل الرئيسي بالدرج الذي يوصل إلى الأدوار العليا. والدرج غالباً يتوسط المبنى ويشكل عنصراً إنشائياً مهماً بالمنزل، وهو في العادة صعب الصعود إلا أنه أحسن حالاً من درج مساكن فيفا.

ويستخدم الطابق الأول عموماً للمعيشة ولاستقبال الضيوف حيث يضم المجلس الرئيسي، وربما تخصص به بعض الغرف للنوم. أما الطابق الثاني فيضم الغرف المخصصة للنوم والجلوس. ويحتوي الطابق الثالث على المطبخ (الملهب) إن لم يكن هناك دور رابع، فالمطبخ يخصص موقعه في أعلى المنزل لكي يخرج الدخان الناجم عن إشعال الحطب والفحم، فلا يؤثر على المنزل. وأحياناً يحتوي الدور العلوي على غرفة خاصة برب العائلة إضافة إلى الفراغ المفتوح المخصص للمراقبة. ويستعمل المطهر للوضوء، أما قضاء الحاجة فيتم خارج المنزل.

وتتوزع فراغات المنزل التقليدي بشكل رأسي على أدواره بحسب عددها، وتأخذ الأشكال المربعة أو المستطيلة، ومساحاتها متقاربة. وتفتح أبواب هذه الفراغات على الدرج الرئيسي للمنزل. وبكل فراغ نافذتان أو أكثر للإضاءة والتهوية. وقد

جرت العادة أن تبنى دكة بغرفة المعيشة والاستقبال الرئيسي، بجانب الحائط بعرض حوالي ٦٠سم وارتفاع حوالي ٤٠سم عن الأرض، وذلك لفرشها والجلوس عليها بدلاً من الجلوس على الأرض. وقد بدأ هذا التصميم ينتشر في البيوت الحديثة أيضاً بدلاً عن الأرائك (الكنب).

القصور. تعارف الناس في عسير على تسمية كل بيت يزيد عدد طوابقه على ثلاثة بالقصر أو الحصن. وكان علية القوم وزعماؤهم يطلقون على قصورهم أسماء محددة تعرف بها، مثل قصر فاضل في إحدى قرى أبها. ويعتقد بأن عمر هذا القصر يزيد على ثلاثة قرون، ويتكون القصر من ستة طوابق، وقد أزيل الطابق السادس بسبب تداعيه. وتوجد بهذا القصر تجهيزات دفاعية مثل فتحات الرماية ومدافن خزن الغلال. ويعد هذا القصر أنموذجاً للفن المحلي المعماري (آل سعود ١٩٨٩ : ١).

ومن القصور الأخرى قصر شدا في أبها نسبة إلى جبل شدا في تهامة بلاد زهران (آل زلفة ١٤١٢ : ٩٣). وقد بنى هذا القصر عائض بن مرعي سنة ١٢٥٠هـ إثر توليه الإمارة، ثم تلاه ابنه فأدخل عليه بعض التعديلات واتخذه سكناً. وفي العهد السعودي صار مقراً للإمارة وتعاقب على سكناه عدد من الأمراء السعوديين حتى عام ١٣٥٣هـ، وقد حول قصر شدا إلى متحف وطني (آل سعود ١٩٨٩ : ٢-٣).

ومن القصور الأخرى في أبها القصر الذي بناه عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة سكناً له سنة ١٣٥١هـ. وهذا القصر من ثلاثة طوابق، الأرضي من الحجر، والطابقان الآخران من المداميك الطينية. ويمتاز هذا القصر بأن مواد بنائه كلها محلية، وأبوابه ونوافذه من خشب العرعر، وليس في هذا القصر وسائل دفاعية كغيره من القصور لأنه بني في عهد آل سعود؛ عهد الأمن والاستقرار (آل سعود ١٩٨٩ : ٥).

وفي الباحة قصور مماثلة هي قصر ابن الرقوش في بني سار، وقصر ابن عبدالعزيز في الجلحية، وقصر آل الشيخ في الظفير، وقد كان هذا القصر الأخير مقراً للإمارة عام ١٣٥٣هـ.

البناؤون وطرق البناء. في منطقة السراة نوعان من المباني هي الحجرية، والحجرية الطينية، وتختلف طريقة البناء حسب نوع المبنى. تبنى المباني الحجرية في السراة كما في منطقة الأصدار (جبال فيفا). وأما المباني الحجرية الطينية فإن

طريقة إنشائها تتشابه مع المباني الحجرية في الدور الأرضي، لكن بقية الأدوار تبنى من الطين بصفته مادة أساسية بالإضافة إلى استخدام الرقف لحماية الحوائط من الأمطار والبَرَد (الثلج).

تدل الطريقة المتبعة في إنشاء المسكن ويسمى البرج أيضاً) على قوة الروابط بين أفراد القبائل، فما أن يعزم الشخص على بناء مسكنه حتى يجتمع معظم أفراد القبيلة المجاورين لمساعدته في نقل المواد، وتلك مهمة شاقة بسبب صعوبة الحركة في المنحدرات. وبعد أن يتم تجميع كمية كافية من الحجارة المختلفة الأحجام يبدأ المتخصصون بإعداد الموقع، وذلك بإزالة الطبقة الهشة من الصخور السطحية حتى يصلوا إلى طبقة الصخور الصلبة التي يتم عليها التأسيس. ثم تبدأ عملية البناء بوضع صخور كبيرة جداً قد يصل أكبر بعد لها إلى ٧٠سم، وتثبت على مراقدها الطبيعية، وعلى الوضع المناسب الذي يضمن ثباتها. ويمكن الاستعانة ببعض الصخور الأصغر حجماً، والصغيرة جداً في عملية تدعيم لضمان ثبات وتوازن هذه الصخور.

وتبدأ مرحلة بناء المنزل باختيار الموقع في أرض مملوكة للشخص، أو تكون هبة من أهل قريته، مع مراعاة المحارم والطرق المؤدية إليه، ثم تجلب الحجارة اللازمة للبناء من المقالع، أو بتكسير الصخور العملاقة بواسطة البارود، وإذا كان موقع الحجارة بعيداً فإنها تجلب على ظهور الجمال، وإذا كانت قريبة فإنها تجر بواسطة الثيران بعد ما توضع على خشبة ملساء. ثم يحفر الأساس على هيئة خندق يحيط بمربع البيت الذي يقاس طوله وعرضه بالذراع، وعرض الخندق نحو متر أو يزيد قليلاً، وعمقه قريبٌ من ذلك أو أقل، وتوضع فيه الحجارة الكبيرة التي تسمى الربض، لأنها تربض على الأرض.

وفريق البناء الذي يسمى البنَّاية مكوَّن من الباني الذي يتناول الحجر ويضعه في مكانه المناسب ويتأكد من وزنه وسلامة وضعه، وهو صاحب الأجر الأعلى، والملقِّف وهو الذي يتحكم في وضع الحجر على ظهر زميله الذي يحمله بحيث يستوي في موضعه بمساعدته ومساعدة الباني حتى لا يتطلب كبير جهد فوق الجدار، والمشذب وهو الذي يجمل الحجارة ويقويها، والملزز وهو الذي يحمل الحجارة على ظهره ويصعد بها إلى حيث يوجد الباني، كما أنه وزملاءه يتولون حشو البناء من الداخل بالحجارة الصغيرة التي تسمى الصلب أو الدمك

ووضع الحجارة الأصغر منها في الفتحات على جانبي الجدار وهي التي تسمى التكحيل أو اللزائز وهذه مهمتها توثيق البناء وتجميله وسد الفراغات حتى لا تأوي إليها الحشرات أو الطيور. والبناء الجيد هو الذي يتطلب أقل قدر ممكن من التكحيل، وعندما يتم البنّاء صفاً واحداً من الحجارة (لحي) يبدأ بوضع الصف الثاني بجانبه وعند اكتماله يسمى الجدار مدماك وكل صفين متجاورين من الحجارة يسميان قوْراً، ويحدد ارتفاع المبنى بعدد الأقوار المتراكبة بعضها فوق بعض، وبعد أن ينتهي العمل في محيط البيت ينتقل إلى داخله لبناء الفواصل التي تحدد مرافقه، وتسمى الرداد ومفردها ردة، ودائماً تكون واجهة البيت وبابه الرئيسي مواجهاً لشروق الشمس طمعاً في الإضاءة ودخول أشعة الشمس، ولذلك يستحدث باب كبير عرضه قريب من مترين وطوله كذلك، وبما أنه عريض فإنه يتطلب عتبة في أعلاه تسمى الجباهة وهذه التسمية مأخوذة من جبهة الإنسان، ولا بد أن تكون من نوع حجارة البناء مهما كلف الأمر. وعندما يقرر الباني وضعها في مكانها، فإن صاحب المبنى يستعين بأفراد الجماعة الذين يتولون دحرجتها بعناية وحذر شديدين فوق سقالة خشبية متينة حتى تستقر في مكانها فيهلل الجميع ويكبرون بأصوات مرتفعة فرحاً بإنجاز المهمة، وبذا تكون عملية البناء قد انتهت.

بعد ذلك تبدأ أعمال النجارة فيأتي النجار ومساعدوه ويبدأون بتجميل وتهذيب الخشب مستخدمين أدوات خاصة منها القدوم، والمنقار والمنقاش يحفر بها الخشب مشكلاً رسوماً هندسية على الأبواب والدعامات في غاية الجمال. وبعد الانتهاء من ذلك يبدأون بتثبيت الدعامات في وسط البيت بشكل رأسي. والدعامات تسمى في السراة بالمرازح (جمع مرزح) أو الزفر (جمع زافر) والواحد منها مثبت في رأسه جسر على هيئة مخروط قاعدته إلى أعلى ويسمى الفلكة فتبدو من أعلى أعرض من الدعامة حتى تستوعب الجسور الأفقية التي تسمى السواري والتي يجري تثبيتها من آخر البيت إلى أوله لتلتقي رؤوسها فوق الدعامات، ثم يؤتى بخشب البطن وهو أقلّ سماكة من السواري فيمدد بعضها بجانب بعض فوق جدران البيت لتلتقي رؤوسه على السواري، وهنا تتم تغطية السقف بالكامل.

بعد ذلك يهب رجال القرية من جديد لجلب الجريد وهو أغصان العرعر التي لا تزيد سماكتها عن بوصة، وسمي جريداً

لأنهم يجـردونه من الأغصان الصغـيرة والنتـوءات، ويتم إحضـاره من الحمى الخاص بالقرية، وأثناء العمل يتم إرسال وجبة غداء دسمة للعمال الذين يسمون أيضاً بالجرّادة، وبعد إحضار الجريد إلى موقع البناء يفرد على كامل الخشب فيسد الفراغات، ثم يؤتى بالغمي من النباتات والشجيرات فتوضع فوق الجـريد، وهنا يصبح البيت جاهزاً لما يُعرف بالطينة.

وفي يوم محدد، يهب أفراد القرية للقيام بهذا العمل فالرجال يحملون الرمل ويصعدون به إلى سطح البيت ويشكلونه أحواضاً، والنساء يحملن القرب ويجلبن الماء حتى يفرغن القرب في الأحواض، وبعد عـجنه يفرده الرجـال على كامل السقف وسـط أهازيج حماسية تشـحذ الهمم، وتستثير العزائم، وكل ما يفعله أهل القرية يأتي في إطار المساعدة التـي تبدأ منذ الخطوة الأولى فيصنعون أقراصاً من طعام لأجل تقديم وجبات للعاملين، لأن صاحب المـبنى ملـزم عرفاً بتـأمين التغذية إذ لا يوجد آنذاك مطاعم، فالقرية أسرة واحدة، والتكافل من شيمتها. وفي مساء يوم الطينة يقيم صاحب البيت مأدبة عشاء كـبرى قوامهـا ثور يذبحـه بهذه المناسبة، ويعد صحوناً كبيرة من عصيد الذرة أو من خبز القمح، ويدعو رجال القرية عن بـكرة أبيهم ولا يتخلف إلا الذي لم يشارك في الطينة لأنه يرى من العيب أن يحـضر، ويقدم المدعوون ما يعرف بالمباركة وهي مقادير مختلفة من الهبة المالية، أما نساء القرية فإن نصيبهن من الطعام يرسل إليهن في بيوتهن.

وفي ليلـة الوليمة يحضـر البناؤون والنجارون، والحداد الذي صنع كواكب الأبواب ومساميرها، وسلاسل السُّرُج، وأصلح أدوات تكسير الحجارة أثناء البناء، ويجري تكريمهم من قبل صاحب البيت الذي يعطي كل واحد كسوة تتلاءم مع الدور الذي أداه، وتمتاز كسوة الباني عن الجميع. ثم يـسدل الستار على مرحلة من أهم المراحل في حـياة الرجل الذي يرى في إقامة بيت حديث عملاً خارقاً ورجولياً، وما عليه هو وعائلته بعد ذلك إلا إكمال الإصلاحـات والتجميل، إذ يتولى هو طلاء الأبواب والدعامات بمادة القطران الأسود تجميلاً لها وحـماية من السوس والنخـر، ويحلي الحديد الذي يكون عـلى هيئـة كواكب مُلـحِقاً بهـا علاَّقات مثبتة فـي صدر الدعامة وعلى جوانبها لحمل السلاح والسُّرُج، وكذلك كواكـب الأبواب وأعـمدة الشـبابـيك بالدهان الفضي الذي يضفي عليها جمالاً أخاذاً، بينما تكون الزوجة منهمكة بإعداد

الخلوبة، وهي كسوة الجدران من الداخل بمعجون المدر، وطلائه بالشيدة وهي تربة فاتحة اللون، والموسرون يدهنون جدران بيوتهم من الداخل بالنورة، وهي نوع من الحجارة اللامعة يجري تنعيمها حتى تكون صالحة للدهن.

ويتحدد حجم البيت تبعاً لإمكانات صاحبه، وأصغرها العين الواحدة وهي التي لا دعامة لها، وهذا النوع يستعمله الرجل الأعزب ومنها العينان وهو الذي له دعامة واحدة عن يمينها عين وعن شمالها عين ومنها ما يكون به دعامتان، وهذا يعرف بثلاث عيون وهكذا بالنسبة للعرض. ويكون المجلس في مقدمة البيت وبه صلل (حوض نار) خاص بإعداد قهوة الضيوف ومن حوله ترص أدوات إعداد القهوة والشاي فيزدان بها الحوض وما حوله، وفي الجانب المقابل للباب الرئيسي فتحات الغرف الوسطى، وتسمى الواحدة منها علّية أو علوا وتستخدم للنوم ولتخزين الأشياء الثمينة، أما مؤخرة البيت فهي للطبخ، والرحى، ومعيشة الأسرة. وإذا كان هذا النمط هو السائد فإن مشائخ القبائل يبنون لهم قصوراً متميزة في إطار الشكل الهندسي السائد، فيبنون بيتاً من ثلاث عيون إلى ست عيون ويبنون آخر مماثلاً له ومقابلاً له، ويربطون بينهما بفناء له أسوار تميزه عن غيره، وقد يزينون البناء بحجارة المرو إذا كانت حجارة البناء ذات لون قاتم.

البناء بالحجر الخالص مع الزخرفة باستخدام أحجار المرو البيضاء حول النوافذ بقرية العكاس بعسير

ومن عجائب الهندسة المعمارية في السراة إلحاق الدَّرج بجدار الواجهة الأمامية بشكل مائل بين العمودي والأفقي من الأرض وحتى السقف، فيأتون بمسطات صخرية طول الواحدة متران يبنى على نصفها داخل المدماك ويبقى نصفها الآخر معلقاً في الهواء، فتبدو متناسقة ولا يوضع لها حافة أمان لأن ألسنتها تزيد على متر، وتستوعب ثلاثة صاعدين دفعة واحدة، أما عندما يكون البيت صغيراً فإن درجته أيضاً تكون صغيرة، وقد يستعاض عن ذلك عند الفقراء بوضع جذع شجرة بشكل مائل يسنده كابول حجري أو خشبي، وتحفر على سطحه أخاديد على مدى الخطوة لكي توضع الأقدام فيها صعوداً أو هبوطاً، وقد تبدو هذه الوسيلة صعبة ومخيفة إلا أن التعود عليها يجعلها سهلة وميسورة. ويلحق بالمبنى من الداخل فتحات في الجدار أبعادها ٤٠سم×٤٠سم×٤٠سم تقريباً عرضاً وطولاً وعمقاً تسمى الخلوف (مفردها خلف) توضع بها الكتب أو الراديو أو ساعات التنبيه، ولا يطولها الأطفال لأنها مرتفعة، كما يلحق بجانبها أوتاد لتعليق الأشياء مثل مشالح الضيوف وما في حكمها.

وتستمر عملية البناء في الاتجاه الأفقي على كامل حوائط المبنى ثم الاتجاه الرأسي دون استخدام مونة لاصقة لذلك، بل يعتمد فقط على دقة وضع الحجر المناسب في المكان المناسب على الوضع المناسب الذي يضمن عملية الثبات والاتزان الدقيقة. ويقل سمك الحائط كلما استمر البناء إلى أعلى حيث يعطي في النهاية ميلاً خفيفاً للحائط الخارجي للمبنى. ويراعى أثناء عملية البناء تحديد مدخل المبنى الذي يقل ارتفاعه عن ارتفاع

طريقة إلحاق الدرج بالواجهة في منزل بالسراة

درج بسيط من الأحجار

الشخص العادي، حيث لا بد من الانحناء لدخول المنزل، وكذلك تحديد فتحات صغيرة للنوافذ والمراقبة ولكن في أضيق الحدود، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى نواحٍ أمنية.

وعند الوصول إلى مستوى السقف (من ٢,٧ - ٣م) يراعى المستوى الأفقي للحوائط، ثم يوضع عمود في وسط الحجرة الرئيسية، وعمود آخر في وسط البرج من جذوع أشجار العرعر السميكة ويُسمى الزافر أو المرزح. ثم تفرش بعد ذلك طبقة من أعواد العرعر الأقل سماكة بصورة متلاصقة بحيث تغطي كامل السقف. ويوضع العمود في وسط الحجرة الرئيسية ووسط البرج بسبب تحمل جسور أخشاب العرعر المتوافرة لأحمال السقف على طول بحر الغرفة البالغ عادة ٤ إلى ٧م في الحجرة الرئيسية، و٣ إلى- ٤,٥م في البرج، وتجدر الإشارة إلى أن مستوى قاع وسقف البرج يرتفع بحوالي ثلاث درجات (٧٠سم) عن مستوى باقي المنزل، ما عدا الدور الأرضي حيث لا يزيد ارتفاع أرضية البرج عن أرض المبنى سوى درجة واحدة بسبب استخدامه حظيرة للحيوانات. ثم تفرش طبقة من الزلط المتدرج على أعواد العرعر المتلاصقة، تليها طبقة من الطين الأحمر، وهكذا تتكرر عملية التسقيف بنفس الطريقة في جميع الأدوار.

ويبنى السلم الذي يؤدي للدور العلوي باستخدام أعواد العرعر في الهيكل الأساسي للسلم (أعمدة وجسور طولية وعرضية) يتم تثبيتها بعد ذلك بالصخور ثم تملأ الفراغات بينها بالطين، ويتراوح عرض النائمة لدرجات السلم من ١٥ إلى ٢٥سم، كما يكون ارتفاع القائمة بصورة غير مستقيمة ٣٠سم ويكون من قلبتين متعامدتين في معظم الأحيان. وقد يستخدم سلم كابولي (مثبت من جهة واحدة) صغير للطلوع إلى السطح وذلك ببناء صخرة طويلة تبرز من السطح الداخلي للحائط بعرض ٣٠سم تقريباً تليها صخرة أخرى لتكون سلماً كابولياً يؤدي إلى سطح المبنى.

ويتم أثناء البناء أيضاً تشكيل أرفف داخلية ركنية عن طريق مد حوامل من أعواد العرعر تبرز من الحائط ثم تفرش فوقها طبقة من الأعواد الأخرى مكونة رفوفاً تستخدم لوضع بعض الآنية عليها. وقبل إنهاء عملية البناء عند سطح المبنى يتم تشكيل كورنيش من الحجارة البارزة، وكذلك تزيين نهاية البناء بأنواع من الحجارة البيضاء الناصعة توضع بطريقة منتظمة تنهي البناء بحزام زخرفي جميل. وتتم أعمال النجارة للفتحات بتجميع شرائح من أخشاب العرعر المصنعة محلياً، ويتم تثبيتها في بعضها بواسطة أوتاد خشبية، ثم بعد ذلك تتم لياسة حوائط المبنى من الداخل بطبقة أو طبقتين من الطين ليصبح صالحاً للسكن.

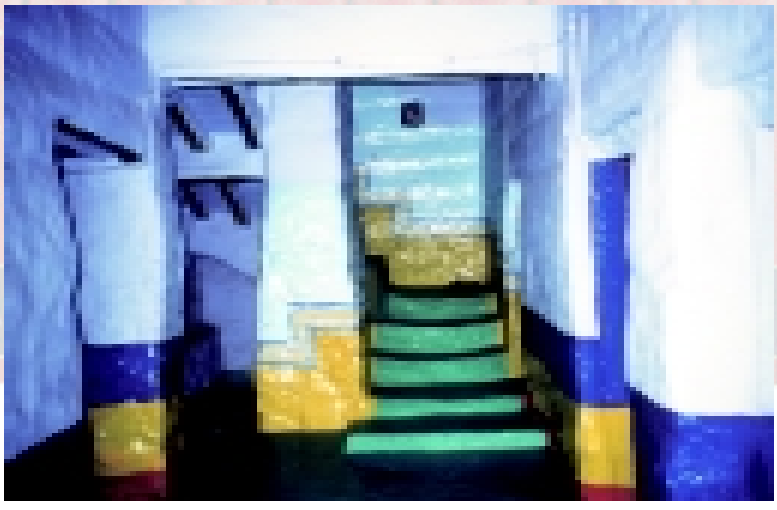

درج المنزل من داخل أحد بيوت قرية في عسير، لاحظ تزيين البيت بالألوان الجذابة